أوضح البيان

في

تفسير القرآن

الجزء الأول

تأليف

محمد حسين الحسيني الجلالي

The Open School
P.O. BOX 53573
CHICAGO, IL 60653-0398

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
١٩٩١م - ١٤١١هـ

الأهداء

إلى كل من يؤمن بـ

" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم (الإسراء :9) "

ويعيش في أجواء القرآن

بما فتح عليه الرحمن

من التدبر في نصوص الآيات

لتطبيقها في الحياة

من المؤلف الفقير

إلى رحمة ربه القدير

محمد حسين الحسيني الجلالي

والله نعم المولى ونعم النصير

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين وبعد :
لقد مرت بي أيام لم يكن سوى القرآن لي من خليل ، وما أعظمه من دليل في الوحشة ، وأنيس في الغربة ، وجليس في الوحدة ، فاستنطقته كما أمر بذلك سيد الموحدين عليه السلام ، فكانت هذه الصفحات التي جادت بها الذاكرة القاصرة ، وحاولت فيها الإقتصار على كل ما يفيده التأمل في القرآن نفسه ما أمكن بأوضح بيان ، وعلى الله التكلان .

محمد حسين الحسيني الجلالي

1
الفـاتحة

سورة فاتحة الكتاب

مكيّة عن ابن عباس وقتادة ، ومدنية عن مجاهد ، وقيل نزلت مرتين : مرة بمكة ، ومرة بالمدينة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1)
(الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَلِكِ يَوْمِ الدِّين (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)) .

وسورة الفاتحة تحتوي على ثلاثة أصول أصيلة في الإسلام ، استعرضتها السورة بإجمال ، وفصّلها القرآن في مختلف السور والآيات وهي :

ألف ـ الحمد شكراً على نعمة الحياة .

ب ـ صفات الله الموجبة لحمده .

ج ـ واجبات الخلق الموجبة لسعادته .

ويمكن تحديدها في نقاط ثمان :

1- في مختلف المشاكل التي يواجهها كل إنسان تبقى نعمة
الحياة نفسها تستحق الحمد من كل الموجودات (وَإِن مِّن
شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[1].

---

[1] - سورة الإسراء : 44 .

2- الربوبية (رَبِّ العَالَمِينَ) في العوالم التي نشاهدها والتي لا نشاهدها .

3- الرحمة العامة لكل الموجودات التي تمكّن العلم من
اكتشافها وما لم يتمكّن .

4- الرحمة الخاصة للمهتدين الذين عرّفهم التاريخ .

5- المرجعية الكونية لجميع الخلائق في الإنتهاء للدين ، أي للجزاء والحساب ، حسب المسؤولية التي يتحمّلها الخلق .

وقد عدل من أسلوب الغيبة إلى الخطاب للإلتفات البياني .

6- العبادة الخالصة لله تعالى دون غيره من الجاه والمقام
والأصنام .

7- الإستعانة به وحده من دون شرك .

8- طلب الهداية منه دون غيره .

وفي الختام إشارة إلى أنَّ الهداية تستلزم سلوك (الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) أي الطريق المعتدل الموصل إلى الهدف المتوسط ، فإنَّ لكل هدف في الحياه ثلاثة اتجاهات : التطرف اليميني ، والتطرف اليساري ، والطريق الوسط ، وهذا الطريق يسلكه أصحاب الوعي والكفاءة ، ويحاول المتطرفون الدخول من النوافذ لانتهاز الفرص على حساب غيرهم .

وكلُّ ما نـزل في القرآن من السور والآيات يرتبط بهذه النقاط الثمان بوجه وآخر ، ومن هنا وقعت سورة الفاتحة في مقدمة القرآن لتضمُّنِها كلَّ أصول الشريعة : من عقيدة ، وعبادة، وسلوك . ومن هنا وجب على كل مسلم قراءتها في كل صلاة ، وعلى الأقل عشر مرات في اليوم .

وكما بـيَّـن اسمها أنها مقدمة القرآن ، وقول النبي (ص) في الرواية المشهورة : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب "[2] وكما ينبئ اسمها أنها كانت في بداية المصحف ، وإنَّ المصحف كان مكتوباً كاملاً من فاتحته إلى خاتمته في عصره (ص) كما شرحت ذلك في " دراسة حول االقرآن الكريم "[3].

وقد وقع الخلاف في عدد الآيات بعد البسملة منها أم لا ؟ وبموقع الآية الثامنة ، ونحن في غنىً عن هذا الخلاف ، فإن وجود البسملة في المصحف خير دليل على أنها من القرآن ، والعدد لم يكن في عصر الرسول (ص) فهي أعداد متأخرة ، والوحي لم يتعلق بالأرقام بل بالنص والعمل والاعتبار بالنص دون الأرقام ، وعلى هذا يكون منهج هذا التفسير تتبع المقاطع القرآنية التي تجمعها وحدة الموضوع ما أمكن معرفة ذلك . والله الموفق .

وبعد أن أشار سبحانه إلى مواقف طبقات الثلاث

---

[2] - الوسائل . ج7 . الباب 1 من القراءة في الصلاة . ح1 .

[3] - دراسة حول القرآن الكريم . ص46و60 .

: المؤمنين والكفار والمنافقين . وقد
فَصَلَّ في سورة البقرة أحوالهم وحججهم ومواقف
الإسلام تجاهم.

2
البقرة

سورة البقرة

مدنية إلا آية واحدة ، قوله تعالى : (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)[4]، وعددها 286 آية في الكوفي ، و 287 في البصري ، و 285 في الحجازي ، و284 في الشامي .

وبصفة عامة يمكن تصنيفها إلى قسمين : الأول : في العقيدة ولوازمها ، والثاني : في الشريعة ولوازمها .

القسم الأول

وفيه عشرون مقطعاً

المقطع الأول

خصائص القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2))

القرآن كتاب هداية :

في هذا المقطع يشير القرآن إلى ثلاثة حقائق هي :

1- أنَّ((ا) (ل) (م)) و (الْكِتَابُ) شيء واحد ، وليسا متغايرين .

2- أنَّه لا ريب في ذلك .

3- أنَّه لغرض الهداية للمتقين .

الحقيقة الأولى : وحدة المراد بمعنى أنَّ (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ) يشكّل جملة عربية مفيدة .

---

[4] - سورة البقرة : 281 .

الخلاف في تفسير المراد من المقطعات مثل (الم) وغيرها قائم ، والأرجح كما يفيده التأمل في الآية أنها إشارة إلى الحروف التي تتألف منها اللغة العربية . وأكثر الحروف استعمالاً في اللغة هي (أ) و (ل) و (م) كما هو في أسماء الأشخاص المستعملة في الحياة اليومية ، ووقعت الكلمة (الم) في هذا الآية في جملة شبه كاملة هي (الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ ... (2)) . فالمبتدأ هو (الم) ، والخبر (ذَلِكَ الْكِتَابُ) . أي أن هذه الحروف التي تستعمل في اللغة العربية ، هي التي تكوّن الكتاب ، فالقرآن مكوّن من هذه الحروف المألوفة وليس بلغة غير مألوفة عند المخاطبين بها .

الحقيقة الثانية : (لاَ رَيْبَ فِيهِ) وفي مرجع الضمير في (لاَ رَيْبَ فِيهِ) احتمالان : الأوّل إن كان (الم) فواضح أنَّ الكتاب مكوّن من شيء بلا ريب . والثاني : إن كان مرجع الضمير هو القرآن كما هو المشهور ، فمعناه (لا شكَّ في القرآن) لأن وضوح الحجة والدليل يكفي في نفي الشك عما لا ينبغي الشك فيه . وإن ارتاب فيه البعض فإنه لا عبرة بارتياب من يشك في وجود الشمس في وضح النهار . فلو درس القرآن، ووقف القارئ على المفاهيم الإسلامية بروح موضوعية لا يجد فيها ريباً ولا شكّاً .

الحقيقة الثالثة : (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) فالهدف من الوحي القرآني ليس شيء سواه ، والإنسان يفتقر إلى الهداية في مسالك الحياة العامة فإنَّ المجتمع – أي

مجتمع بشري – يتكون من أصحاب الهوى والكفر والنفاق ، ومن لا يوافقهم على هذه المبادئ من المؤمنين ، وأن الكفار والمنافقين تبتني حياتهم على المنافع الشخصية من دون أي اعتبار لمبدأ إنساني غيره ، فلا يمكن أن تكون الهداية موجهة إليهم ، لأنهم يرفضون أي مبدأ غير مادي ، فلا بُدَّ وأن تكون الهداية موجهة لمن (يتقي) ويحذر ويخاف من الظلم ، ويريد تحقيق العدل ، وليس هؤلاء سوى المتقين وكما قال تعالى : (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[5].

المقطع الثاني

صفات المؤمنين

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)) .

صفات المؤمنين

ومن أهم صفات المؤمنين المذكورة هي :

---

[5] - سورة ابراهيم : 1 .

1- الإيمان بالغيب بمتابعة العقل لتمييز الحق من الباطل ، ومعرفة ما لا يمكن معرفته بالحس والتجربة بالوحي .

2- إقامة الصلاة بالتحصّن الروحي .

3- الإنفاق من رزق الله بالمساهمة الإقتصادية لسعادة من يفتقر إليها من أفراد المجتمع .

4- الإيمان بما أنـزل على محمد (ص) من القرآن ، أو الحديث القدسي ، أو الحديث مطلقاً .

5- الإيمان بما أنـزل قبله من التوراة والإنجيل .

6- الإيقان بالآخرة .

وهذه هي أسباب الهداية الربانية ، ويشمل المتقين الفلاح في الحياة .

المقطع الثالث

من صفات الكفّـار

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ (7)) .

صفات الكفّار :

ذكر سبحانه وتعالى أهم صفات الكفار ، والكفر هو لغة بمعنى الغطاء ، وبهذا المعنى ورد قوله : (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)[6]، والذي يغطّي عقله ولا

---

[6] - سورة الفتح : 29 .

يريد أن يفكر لا يؤثر فيه التثقيف الديني فيكون ، (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) فحالهم حال المريض الذي يقرر أن لا يذوق الدواء ، فهو لن يشفى أبداً ، وهؤلاء (لاَ يُؤْمِنُونَ) لأنواع الغطاء الموجود عليهم :

1- الغطاء على القلب ، فهم لا يفتحون قلوبهم لغيرهم ، لأنهم لا يهتمون إلا بمصالحهم المادية الخاصة دون الإنسانية .

2- الغطاء على السمع ، فهم لا يسمعون القول الذي لا يعجبهم .

3- غشاوة الأبصار فليس لهم رؤية واضحة في الحياة .

وطبيعي أن يفقد من حاله كذلك السعادة الروحية في الدنيا وله (عَذَابٌ عظِيمٌ) في الآخرة .

وليس معنى القلب حقيقة الجزء الفسيولوجي من الجسم، بل استعير للعقل للدور المؤثر في الجسم ، وبهذا المعنى في القرآن (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ)[7] فإنَّ جسم كل إنسان له قلب ، وكذا قولهم (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) كما سيأتي . فإن ختم القلوب يعني عدم الانفتاح على الآخرين بروح إنسانية بعيدة عن الأنانية ، فإن القلب الصنوبري حاصلة لكل الحيوانات بما فيها البهائم التي لا هَمَّ لها

---

[7] - سورة ق . 37 .

سوى علفها ، بل المراد الإدراك والعقل والشعور الذي يمتاز بها الإنسان على غيره من الحيوانات ، وهذا القلب قد يكون مريضاً زائغاً ، كما وردت هذه الأوصاف في القرآن .

وحيث صرح القرآن بأنه (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) فيطرح السؤال : لماذا يعذّبهم وهو الذي فعل بهم ذلك ؟

وهذا هو معقد الخلاف العقائدي بين القدرية والمعتزلة

والأشاعرة مما هو مطوّل في علم الكلام ، والمختار أن أفعال العباد تنسب إلى العباد لأنهم المباشرون بالفعل ، وبذلك يستحق الثواب والعقاب ، وكذلك أيضاً ينسب إلى الله لأنّه هو الذي أعطاهم القدرة لاختيار أيٍّ من الثواب والعقاب ، فلو لا هذه القدرة لما تمكن العبد من إحديهما ، وبذلك صحت نسبة الفعل إلي كلٍّ من الله بالواسطة ، وإلى العبد بالمباشرة ، وبذلك استحق العقاب والعذاب لاختياره السّيّء .

ومسألة الجبر والاختيار في بحوث علم الكلام كثر الخلاف فيه ، وتعددت المذاهب من الاختيار المطلق ، والجبر المطلق ، والحق أنّه شيء بين الأمرين : فإرادة الإنسان فوقها إرادة أعلى هي إرادة على الله الذي خلق الإنسان .

المقطع الرابع

من صفات المنافقين

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14) اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)) .

صفات المنافقين :

وحدّد القرآن صفات المنافقين بشيء من التفصيل لأنهم

الكثرة في الحياة ، أو لأنهم أشد ضرراً للطائفتين المتقين والكفار ، فإن دور المتقين والكفار واضح المعالم ، يعرفه كل أحد تعامل معهم على أساس مبادئهم ، وأمّا دور المنافقين فهو غامض وملتبس يحتاج إلى بيان أساليبهم وخططهم ، وأهم صفات المنافقين :

1- دعوى الإيمان (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) .

2- المخادعة في أعمالهم تجاه الله والمؤمنين (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم) .

3- المرض الروحي في قلوبهم الذي يوجب لهم (العذاب) الروحي (الأليم)

4-الكذب بإسماع كل فرد ما يعجبه كذباً ليجلبه إليه .

5- الإفساد بزعم الإصلاح , وهذا نابع عن تبنّي الكذب مبدأ للحياة .

6- تسفية الآخرين من دون علم (ألا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ) .
7- الإستهزاء (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ) .

وهذه الصفات السبع من أهم صفات المنافقين .
والنفاق مشتق من النفق الذي يحدث في الجسم الملتئم , والمنافقون في كل هذه الخطط يحاولون احداث ثغرة في جسم الأمة لإحداث الضرر فيها , والله لا يمنعهم بالقوة - لأن القرآن إنما هوكتاب الهداية, لا الإكراه - ولذلك (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) حتى يجدوا أنَّ خططهم لا تزيدهم إلا قلقاً وعذاباً روحياً ،
لأنّها خطط تكسب أشياء وقتية لا غير , والأمل برجوعهم إلى حظيرة الحق أيضاً , فيتركهم الله تعالى كي يواجهوا حقيقة الحياة وطعم الهداية , ويستلهم ذلك من المثل الذي ذكره القرآن.

مثل المنافقين :

وذكر القرآن الكريم للمنافقين مثلين حسّيّين , لأنهم في الحقيقة كفار أعلنوا الإيمان نفاقاً ليستروا على أنفسهم , ولعل المثال الحسّي يهديهم , فالمنافق يعرف الحقيقة ولكن لا يُنتفع بالنور الحاصل إلا لفترة قصيرة .

المثـال الأول :

مثال الذي يوقد النار وهو في الظلمات , ولكنّه لا يستضيء بهذا النور الحاصل إلا لفترة قصيرة , وتنطفىء النار فيبقى بدون ضياء .

والمنافق الذي كان كافراً وأصبح مؤمناً يجد النور في حياته , ولكنّه لا يريد أن يستمر في الإستضاءة بهذا النور , بل ينتفع به حسب ما يريد , ولا يغمر الإيمان حياته كلها , بل جانباً قليلاً منه , وفي هذه المرحلة يشملهم ثلاثة من صفات الكفار , وهي :

1- الصمم . 2- البكم . 3- العمي . فهم لا يسمعون الحق , ولا يتكلمون بالحق ، ولا يرون الحق .

المثـال الثـاني :

هو المطر (الصيّب) النازل من السماء الذي يحيي الأرض والنبات , ولكنّ المطر لا يخلو من أمور : لأنّـه يخاف منه الإنسان فيما يصادف من (ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) تؤثـر على راحة الإنسان فيضطر إلى ما يتصوّر عادة (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم) خوفاً (من الصواعق) التي تنذر أحياناً (بالموت)، و(البرق) يكاد أن (يخطف) ويؤثـر في (أبصارهم) ، وهم يستهدون به (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم) وبذلك الضياء (مَّشَوْا فِيهِ) أي في البرق , ولكن البرق لا يدوم ، وحينما (أَظْلَمَ) الجوّ (عَلَيْهِمْ قَامُوا) خوفاً ، وعلى كل حال أن الله سبحانه قادر على أن

يأخذ (بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) ولكنّه تعالى لا يفعل ذلك لأنه تعالى يريد أن يهتدوا .

والمنافق كذلك يرى أن رسالة الاسلام تحيي القلوب كما يحيي المطر الأرض والنبات , ولا تخلو الرسالة من صعوبات في (ظُلُمَات) الجهل والكفر ، (وَرَعْد وَبَرْق) وتخويف وتهديد قد تصل إلى الموت , وأحياناً تكاد هذه التهديدات أن تخطف العقول وتؤثر في النفوس ولكنّها وقتية زائلة لا تجلب راحة للروح والجسد , و تأخذ دورها المؤقت ، وتنتهي بانتهاء دورها .

والمنافقون قد ينتفعون بها (و يمشون) في طريق الوعود والعهود , ولكنّها طرق قصيرة ـ كما يشبه التأريخ ـ يتركهم في ظلمات الجاهلية والله قادرعلى أن جعلهم في ظلالهم ولكنّه لا يفعل ذلك لأنّه تعالى يريد أن يهتدوا .

ولشدة ضرر المنافقين جعلهم القرآن من أدون الطبقات حتى في العذاب ، قال تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)[8]. وقد خص الله تعالى سورة خاصة بالمنافقين كما سيأتي .

[8] ـ سورة النساء : 145 .

المقطع الخامس

من حجج الكفار

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (22) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)) .

دعاوي الكفار :

دعاوي الكفر تتلخص في ثلاث : 1- انكار الحق ، 2- انكار نبوّة محمد (ص) ، 3- انكار المعاد .

واشترك أهل الكتاب في الأخيرين مع الكفار , ونجد في هذا المقطع أنّ القرآن يؤكّد على المبادئ الثلاث :

أولاً : دليل الخلق يذكر ثلاث أدلة على الخلق :

1- جعل الأرض فراشاً , ولو كانت الأرض غير صالحة لأن يتصرف الإنسان فيها بل كانت معدناً خالصاً لما أمكن استمرار الحياة .

2- جعل السماء بناءً يتحكم فيه النظام والدقة , ولو كانت السماء - وهو كل ما يعلو الأرض - من دون إحكام في البناء من طبقات الجوّ التي تحكم في الأرض بصورة مباشرة ، من وقاية الشمس وغير ذلك من الآيات الكونية لما أمكن استمرار الحياة أيضاً .

3- انـزال الماء , فلو لم يكن اختلاف الفصول المؤثرة في نمو النباتات بالمطر ؛ لما أمكن اخراج (الثمرات) والنبات من الأرض , ولما أمكن استمرار الحياة على الأرض .

ثانياً : دليل النبوّة ويكتفي القرآن بدليل الذين شكّكوا في القرآن فدعاهم إلى اتيان سورة من مثله (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) في رسالته للمقارنة مع القرآن , وأن هذه المقارنة تكون شاهدة على أن رسالة القرآن سماوية نازلة بالوحي من الله تعالى , وأنَّ (شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ) ليس لهم القدرة على اتيان ما يكون بديلاً للقرآن .

وهذا العجز دليل واضح على أن القرآن وحي إلهي ,

وأن الذين لم يستوعبوا رسالة القرآن ظنوا أن المعارضة تكون بالسجع والقافية , فحاولوا تقليد اسلوب القرآن كما فعل مسيلمة في سورة الفيل , بأنَّ له خرطوم طويل ... الخ .

والقرآن يؤكد أكثـر من مرة أنَّ رسالة القرآن ليست سوى دعوة إلهية للتقوى وبناء روح قوية عادلة شاملة كاملة في المجتمع , وأنّ هذا لم يحصل في أيّ كتاب آخر .

فهذه ثلاث آيات كونـيّة ظاهرة لكل من تأمل الحياة ـ سواءً العالم و الجاهل ـ والمتأمل أمام خيارات : الكفر

بأن يغطي عقله ولا يريد فهم الحقائق , أو الإلحاد بأن ينكر وجود الخالق بالرغم مما يشاهد من آثار كونـيّة دقيقة وحكيمة , أو الإيمان بأنَّ هذه الآثار تدل على مؤثـر , ولكل مسبّب سبب , ولكل معلول علة فلا يمكن الإلحاد , لأنه انكار لقانون العليّة , ولا يمكن الكفر إلا لمن لا يريد فهم الحقائق , فلا بُدَّ من الرجوع إلى الإيمان بعلة أوجدت الكون , وأنَّ كل العلل ـ بما فيها الطبيعة ـ تـرجع إلى علة أولى , وكذلك فإنَّ العلة الأولى هي الله تعالى الذي جعل نظام الكون الدقيق بفصوله وآثاره وآياته , وليس المنكر لهذه الدقة في الكون إلا مثل من ينكر أن تكون الساعة المصنوعة وجدت بوسيلة صانع خبير ، ويقول أنها وجدت من دون صانع , وغريب أنه لو ادّعى ذلك أحد لاتُهِّمَ بالخلل في العقل والجنون , دون من ينكر ذلك في خلق العالم (أندَاداً) سواءً من الأصنام أو المادة الفاقدة للشعور (وَأنتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وثالثاً : المعاد :

وهو ما يبـيّـنه الله سبحانه في الآيتين (28 ـ 29) من هذه السورة ، ويشير القرآن إلى دليل وجداني محسوس لكل انسان على إمكان المعاد , وسيأتي تفصيلهما .

المقطع السادس

نتيجة الإيمان

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)) .

وفي هذا المقطع يستعرض القرآن جزاء المؤمنين والكفار جزاءً
عادلاً , فجزاء الكفر النار التي لا وقود لها سوى (الناس) العصاة و(الحجارة) التي تكوّنها فإنها (أعدت للكافرين) وأنذروا منها قبل العقاب فلذلك يكون عقاباً عادلاً لا انتقاماً .

وأما جزاء الإيمان فطبيعي أن يكون نقيض جزاء الكفر, ولكن الإيمان وحده غير كافٍ ، بل يجب أن يكون مع العمل على طبق الإيمان (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ويتكرر هذا في القرآن أكثر من مرة , أما الجزاء فهو :

1- الجنات ذات ثمرة مشابهة لما رزقوا من قبل .
2- أزواج مطهرة يشاركون النعمة فيها .
3- الخلود في الجنة .

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)) .

أمثال الله :

وهذا المقطع يتضمن الأسلوب القرآني في أداء رسالة السماء , ومنه يظهر أن الكفار اعتادوا أساليب متعددة من دون تصريح باللفظ المراد فإنَّ القرآن جاء على بعض هذه الأساليب .

ومن هذه الأساليب ضرب الأمثال فلعلَّ هناك من يقول : يكفي بيان الرسالة من دون ذكر للأمثال , وهذه غفلة عن أنَّ القرآن لم ينزل لطائفة خاصة بل لعموم الناس , فيجب أن يشتمل على كل ما يفهمه كل أحد (لاَ يَسْتَحْيِي) الله أن يضرب مثلاً صغيراً مثل (بَعُوضَةً) إذا كان يؤدي الرسالة المطلوبة . وطبيعي أن المؤمن يعلم (أَنَّهُ الْحَقُّ) لأنه يهتم بإيصال رسالة الإسلام إلى العامة . وأمّا الكافر الذي حصر نفسه في

دائرة المصطلحات والأعراف لا ينظر إلى الأمثال إلا يكونها رموزاً واشارات , ولا يهتدي إلى أغراضها , وكل طائفة تنظر إليها من موقفها الهادف والفعّال لأنَّ كل واحد ينظر من زاوية خاصة (والفاسق) هو الخارج عن الطريق .

الكفار واليهود :

الخاسرون في الحياة هم اليهود المنافقون الذين تواجدت فيهم الصفات الذميمة ، وفي الآية (27) إشارة إلى اليهود الذين :

1- ينقضون عهد الله , ولا يعملون بمواد العهد , وستأتي الإشارة إلى ذلك .

2- يقطعون ما أمرالله به , ويمنعون العمل به بمحاربة أوامر الله .

3- يفسدون في الأرض , بأنواع الحيل لإلهاء العامة بالمغريات و الشهوات .

وهم وإن أمكن أن ينجحوا في الدنيا لفترة قصيرة , لكنّهم (خاسرون) لأنهم بأعمالهم يفقدون الراحة الفكرية والجسدية في الحياة .

دليل المعاد :

في الآيتين (28 و29) يشير القرآن إلى دليل وجداني محسوس لكل انسان على إمكان المعاد , فالتأكيد على ثلاث آيات لقرينة أخرى :

1- خلق الإنسان من العدم - إلى الوجود - إلى الموت , ثم ما بعد الموت , فإن الإنسان لم يكن موجودا ثم وجد
ثم يموت .

2- خلق ما في الأرض جميعاً ، فإن الأرض لم تكن موجودة فوجدت من العدم .

3- خلق السماء سبع سماوات متساوية , حيث أن طبقات الأثير التي تعلو بعضها البعض لم تكن موجودة فوجدت , وأنها كانت معدومة فوجدت ، إنّه خَلْقُ الله الذي هو (بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ، إذ لا يمكن أن يحصل هذا النظام الكوني الشامل من طبيعة عمياء لا علم لها , فالله هو الذي أوجد السماء فوجد النظام السماوي .

حقاً إنّه أمرٌ غريبٌ أن ينكر الإنسان خلق الشيء بعد الموت من المواد التي كوّنت جسمه في الحياة , مع أنّه يرى أنه قد خلق من مواد مشابهة للتي سبقت وجوده ؟!! فإن الإجابة على أيّ واحد من الأسئلة حول وجود الإنسان والسماء والنظام السماوي من العدم تؤكد على إمكان وجود الإنسان بعد الموت من العدم أيضاً .

كما أن الإنسان لم يكن موجوداً فوجد ، فإنه سوف يوجد بعد أن يعدم بالموت , وكما أن السماء لم تكن موجودة فوجدت ، فإنه سوف يعرضها الفساد المادي وتعدم .

وكما أن النظام السماوي بين السيارات لم يكن موجوداً فوجد ، فإنّه سوف يعرضه الفساد بانطفاء الشعلة الوهاجة في الشمس بعد نفاذ وقودها ، وبهذا يكون اختلال العالم وحصول يوم القيامة و البعث و النشور ، والله العالم .

المقطع الثامن

الخليفة في الأرض

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا

جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)) .

قصة آدم :

بعد أن أشار سبحانه أنّه (خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً) ابتدأ بقصة أول انسان على الأرض (وهو آدم (ع)) على أنه (خليفة) وأشار إلى طبيعة آدم , وعلم آدم ، وطبيعة الملائكة ، وابليس ، ومصير آدم و حواء في الجنة وعلى الأرض . ويبدأ المقطع بكلمة (وإذ) معلّقاً بمحذوف وهو (أذكر) حذف لشدة ارتباط القصة بما خلق الله في الأرض , ولعل قصة آدم وتفاسير الآية أكثر التفاسير اختلافاً ، ونحن نحاول بقدر الفهم القاصر الجري على المتبادر من النص القرآني لفهم هذا المقطع .

والموضوع هو خلق جديد يضاف إلى مخلوقات الله الغير المتناهية يعرف بالإنسان أو (آدم) لأنه من طين وماء يسمّى بأديم الأرض , كما أن الملائكة خلق روحاني في السماء .

محاورة الملائكة :

في الآية (30) يبتدئ المقطع الثامن بمحاورة في خلق

خليفة الله , والظاهر أنّ الخلافة عن الله تعالى كما هي للملائكة في السماء ؛ ولعل السبب في البدأ بهذه المحاورة مع أنه سبحانه كان له أن يخلق بدونها , أن

يظهر حقائق نفوس الملائكة لبعضهم البعض وللآخرين ، وبدون هذه المحاورة لم يمكن أن نعرف طاعة الملائكة وعصيان ابليس .

والملائكة من جانبهم لم يعترضوا على خلق آدم , وإنما سألوا - مجرد سؤال - لمعرفة الحكمة من هذا الخلق , فإن كانت الحكمة التسبيح والتقديس ففي خلق الملائكة كفاية (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لكَ) والسؤال لماذا يجعل في الأرض (مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ) ؟ وربما أن الملائكة لم يكونوا يعرفوا أن الخلق الجديد يفسد ويسفك الدماء إلا بالمقارنة بخلقهم وعلمهم ، بأنهم خلقوا ولا قدرة لهم ذلك . فلا بُدَّ أن يكون الخلق الجديد على النقيض منهم فاستفهموا استفهاماً حقيقياً .

والله سبحانه لم يجب على السؤال سوى بقوله (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) ، ولعل الحكمة أن الخلق لا يكون كاملاً إلا بخلق الأضداد فإن الخلق يجب أن يشمل على ما لا قدرة له على الفساد كالملائكة , ومن القدرة كالإنسان .

ولكنّ الملائكة لم يخلقوا من طين وماء بل كانوا مجرد
أرواح , ولم يكن بإمكانهم إن يكون لهم المواهب الإنسانية ، والطاقات البشرية لاكتشاف المعادن المنتشرة في العالم .

علم آدم :

وفي الآيات (31-33) علّم الله آدم أوّل السلالة البشرية الأسماء , وهي تعني المسمّيات , أي كل شيء متصور من مخلوقات الله , ويدخل في ذلك أسماء اشخاص من النبيّين وغيرهم ، ولذلك صح التعبير بـ (هؤلاء) , وبهذا كرّم الله خلقه الجديد بالعلم لأشياء لم يعلمها الملائكة لعدم قابليتهم واستعدادهم لهذا العلم ، واستعداد الانسان له ، ولما سأل الله الملائكة عن الأ سماء ؟ اجابوا (لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا) واعترفوا بعدم قدرتهم ومحدودية طاقاتهم ، ومن جانب آدم (أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ) لقدرته على ذلك .

والله أشار إلى علم الملائكة بقوله (مَا تُبْدُونَ) من السؤال الحقيقي ، (وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) من الحسد للخلق الجديد الأكثر قوةً وعلماً .

وعن طبيعة خلق آدم اشارت آيات اخرى بأنها من طين كما في سورة ص ، قال تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ)[9], وفي سورة السجدة قال : (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ), وفي سورة المؤمنون قال : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)[10].

---

[9] - سورة ص : 71 .

[10] - سورة المؤمنون : 12 .

فإذاً كان الطين أصل الانسان وتطوّر إلى مراحل لا يعلمها إلا الله ، وسنين متمادية لا يعلمها الإ الله حتى أصبح انساناً سوياً (فتبارك الله أحسن الخالقين) إذا ارتفعت البشرية نحو الكمال بمراحله الطبيعية .

ابليس والملائكة :

وفي الآية (34) إشارة إلى امتحان إلهي ليظهر الحقائق الكامنة في نفوس بعض الملائكة ، فقال لهم : (اسْجُدُوا لآدَمَ) وهذا أمر إلهي واجب الطاعة , فمنهم من أطاع (فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ) فظهرت حقيقة ما يكتم بأنّه (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ) وبهذه الخصلتين : الإباء والإستكبار أصبح (مِنَ الكَافِرِينَ) .

وتكررت الإشارة إلى ذلك في الآيات : الأعراف 11: (فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ) ، والإسراء 61 : (فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ) ، وَ ص 73 : (إلاّ إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ) ، والكهف 5 : (فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ) ، والحجر 31 : (إلاّ إبْلِيسَ) ، ولم يكتفِ سبحانه بالعلم بالحقائق , بل قام بدور الإمتحان اثباتاً لتلك الحقائق .

آدم وحواء :

وفي الآيتين (35 – 36) ذكر إن آدم وزوجه بعد أن خلقا في الأرض ـ ظاهراً ـ مرّا بمرحلة امتحان إلهي كما مرت الملائكة , ولو لم يمر الإنسان بهذا الامتحان لكان مفضّلاً مطلقاً على الملائكة ، فالعدالة الإلهية تقتضي أن يمر بالإمتحان أيضاً , فقال : (اسْكُنْ

أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) .

واختلفت الأقوال في موقع الجنة ، والشجرة ، ونوعية الشجرة ، وأين كانت الشجرة ، إلا أنَّ المهم أن مخالفة الأمر الآلهي هي العصيان ، ويوجب ذلك عَدّ العاصي (مِنَ الظَّالِمِينَ) ، وهذا ما حصل فعلاً حيث أزَلَّهُمَا (الشَّيْطَانُ) ، ووسوس لهما فأكلا من الشجرة عصياناً , وهذا العصيان بترك الأولى كان سبباً لإخراجهما من المكان الذي كانا فيه ، (وَقُلْنَا اهْبِطُوا) جميعاً إلى (الأرْض) ، والحياة فيها حتى (حِين) الموت .

وجاءت الإشارة إلى دور إبليس بعنوان الشيطان في قوله تعالى: (لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ)[11]، وقال في سورة طه (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ)[12].

توبة آدم :

ولما شعرآدم بعصيانه الأمر الألهي وطرده من الجنة حاول التوبة بأسبابها وهي (كَلِمَاتٍ) دعا بها , والله استجاب الدعاء (فَتَابَ عَلَيْهِ) لأنه (هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

وعصيان آدم وتوبته يكشفان عن طبيعة جديدة للخلق الجديد ، فبالرغم من اقتراف المعصية , فإن

---

[11] - سورة الأعراف : 27 .

[12] - سورة طه : 120 .

عنده الشجاعة على الإعتراف بالخطأ والتوبة وتصحيح المسير الخطأ ، بينما الخلق الآخر ليست له هذه الشجاعة ، بل العكس فإنّ عنده حالة الإصرار على الخطأ والإغواء إلى يوم الدين , كما نجد ذلك في آيات أخرى .

الخاتمة :

في الآية (38-39) ختم قصة آدم بعبرة عامة ، هي : إنّ الإنسان يواجه في حياته خيارين :

أولاً : الهداية التي يأتي بها الأنبياء (فَمَن تَبِعَ هُدَايَ) ذلك (فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)، (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

ثانياً : الكفر ، ومن كذب بالهدى ، وكفر بالأنبياء يكون من (أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

المقطع التاسع

العهد الإلهي

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ

الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ(45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(46)) .

العهدي الآلهي :

وبنود العهد الآلهي تتألف من مقدمة عامة لدعوة بني

اسرائيل تذكرهم بنعم الله عليهم التي هي عهد اجتماعي بين الله وعباده , وأنّ ذلك يستلزم وفاءهم بالعهد كما وفى الله بعهده .

وبنود العهد الآلهي التي أشار إليها سبحانه هي عشرة , وهي :

1- الوفاء بالعهد (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي) وتحمّل المسؤولية

في الحياة هو الركن الأول للعهد , فإن إهمال هذه المسؤولية انسلاخ من الدين .

2- (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) أي لا شئ يستحق الرهبة سوى الحق تعالى.

3- (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ) فالإيمان بما أنزل الله ركن أصيل في هذا العهد ، وما أنزله الله على محمد (ص) (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ)، وموافق مع الوحي الآلهي الذي لديكم .

4- (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) باتخاذ الدين

ركناً أصيلاً في الحياة وعدم المساومة على المبادئ الدينية .

5- (وَإِيَّايَ فَاتَّقُون) الخوف والتقوى يكون من الله
فقط دون أيّ شيء آخر .

6- (وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ) أي الغش والتزوير
وكتمان الحق مع العلم به .

7- (وَتَكْتُمُوا الحَقَّ) فإن كتمان الحق يناقض المبادئ
الآلهية .

8- (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) فلا دين بدون الصلاة التي تمثل
الركن الروحي .

9- (وَآتُوا الزَّكَاةَ) ولا يتقوم الركن الروحي بدون
مساهمة اقتصادية للفقراء .

10- (وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) الخضوع للحق والركوع لله ، والرضوخ للحقيقة من مبادىء الوحي , وبدونها لا يتم الميثاق .

والنتيجة :

أنّ هذه البنود التي تتكفل الأركان الروحية والإقتصادية والإجتماعية هي قوام أيّ مجتمع بشري متحضّر , وهذا ما يدعو إليه دعاة الإصلاح طول

التأريخ , ومنهم بنو اسرائيل أنفسهم , ولكنّ المشكلة أن القادة منهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ؛ فإن الدعوة إلى الشيء يستلزم العمل , وهذه اشارة واضحة إلى ضرورة التوازن في التشريع بين الهدف والوسيلة , فإن الغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام ، وطبيعي أن هذه الحالة من العلم والعمل ليست بالسهلة , وتفتقر إلى معونة , فأشار سبحانه إلى أمرين هامين لهذا التوازن هما : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) :

1- الصبر : فلا تتحقق الأهداف في لحظات , بل تفتقر إلى صبر ربما لأمدٍ بعيدٍ .

2- والصلاة : فإن التعبئة الروحية لها أثرها الكبير في تحقيق الأهداف , وبما أن التعبئة الروحية (وَالصَّلَاةِ) خاصة تستلزم شروطاً تعارض الفهم المادي للحياة فهي تكون (لَكَبِيرَةٌ) على من لم يفهم قيمتها , وهم المتكبرون وعامة الناس(إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

فهم يشعرون بضرورتها وحلاوتها ؛ لأنهم الذين يؤمنون بلقاء (رَبِّهِمْ) (وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ، وأن هناك حساب على أعمالهم في الآخرة ، وأنهم ليسوا مخلوقات بدون مسؤولية أمام الله والتأريخ .

المقطع العاشر
نِعَمْ بني اسرائيل

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا

وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)) .

نعم بني اسرائيل :

يستعرض القرآن بتفصيل النعم التي أنعم الله بها على بني اسرائيل , وتستدعي كل واحدة منها دراسة مستقلة , والآيات تشير إلى بعضها من دون تفصيل

ربما لوضوحها للمخاطبين آنذاك , وإلى البعض الآخر بشيء من التفصيل .

وتخاطب الآيات بني اسرائيل باعتبارهم أمة مثقفة آنذاك , والثقافة تستلزم الإلتزام بالمسؤولية الإنسانية ، وليست الثقافة هدفاً بل وسيلة لخدمة البشرية ، والنعم التي تشير إليها تستدعي الشكر , لا الكفران , و إليك بيان ذلك في مقاطع .

1- الحرية من آل فرعون :

أولى النعم هي الحرية من الظلم والنكال من (آلِ فِرْعَوْنَ) أي أصحاب السيادة في الحكم من الفراعنة ، وهم ملوك مصر عامة , وليس اسماً علماً فقد ابتلي بني اسرائيل في تلك الفترة بـ (بَلَاءٌ) أي امتحان (عَظِيمٌ) حيث اتخذ الفراعنة سياسة (السُوم) أي العذاب , سواء في ذلك التعذيب الجسدي أوالنفسي .

أما الجسدي فهو سياسة ذبح الأبناء لينقطع نسل بني اسرائيل ، وأمّا التعذيب النفسي فهو سياسة استخدام النساء في الحياة ، وطبيعي أن التعذيب الجسدي والنفسي (بَلَاءٌ) وامتحان (عَظِيمٌ) ، فالحرية من نعم الله الكبرى التي تستوجب الشكر .

2- اهلاك العدو :

وثانية النعم : انقاذ بني اسرائيل , حيث (فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) و نجوتم من (آلَ فِرْعَوْنَ) , فالبحر فصل بينكم وبين آل فرعون , وحيث أنّ آل فرعون لم يكونوا يتركوا العدو حرّاً طليقاً فلم يكن محيص سوى اهلاك

الظالم (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) نتيجة لظلمهم (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) إلى الغرق هذا فإنّ انقاذكم من الظلم بإهلاك العدو نعمة تستدعي الشكر .

3ـ مواعدة النبي موسى عليه السلام :

والثالثة من النعم : أن موسى كان يدعو الله بالحكم والإستقلال في الدين بالتوراة , وأن الله واعده في ذلك , ويظهر من صيغة المفاعلة أنّ الله سبحانه قد استجاب للوعد من جانبه .

وكل ما يعرف في هذه الموعدة أنها استغرقت (أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) ، وهذه الفترة كانت امتحاناً للصابرين , فآمن به البعض ، ولم يصبر الآخرون بل (اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ) من بعد الميقات المحدّد مع سبعين رجلاً (راجع الأعراف : 155) ، وهو انتهاء أربعين ليلة , واتخاذ العجل كان ظلماً يستدعي عفواً , وكل ذلك حصل لأنها كانت عن قلة صبر وعدم انضباط يبتلي بها أصحاب النفوس الضعيفة ، والله سبحانه يعفو عن ذلك ، وإكرام بني اسرائيل بالدين والتوراة ، فهم أصحاب دين مستقل ، وهذه النعمة تستدعي الشكر .

4ـ كتاب موسى = التوراة :

والنعمة الرابعة : انزال التوراة , فأتى الله موسى (الْكِتَابَ) وهو التوراة . وهو الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم ، ووصفه بـ (الْفُرْقَانَ) أي الذي يفرق به بين الحق والباطل , وهذه الصفة كانت في ذلك العهد , ولكل دين كتاب ، فالدين لا يكمل

من دون الكتاب ، كما أن الدولة لا تقام من دون دستور , فقد أصبح بنو اسرائيل قد حصلوا على نعمة كبيرة في حصولهم على دين ونبي صاحب كتاب وقيادة حكيمة , بعد أن كانوا في تيه وتحت ظلم الحكم القائم , فإنهم قد أصبحوا في ظل حكم أنفسهم قيادة ودستوراً ، وهي نعمة تستحق الشكر .

5- **قبول التوبة :**

النعمة الخامسة : قبول التوبة , وتوبة كل شيء بحسبه , وحيث أن بني اسرائيل كانت أمة أصبحت مستقلة وجب عليها أن تطبق قواعد العقوبات على نفسها عند التخلف , فالمجرم لا يغفر جرمه إلا بعد استحقاق العقوبة , إذ لو لم يطبّق قانون العقوبات لساد الظلم بينهم مرة أخرى , ومن أظلم الظلم عبادة العجل الذي حصل من بعضهم , والعقاب كان لعبادة العجل من (أنفسهم) إذا لم يتب , فإن عبادة (العجل) لا تجتمع مع (عبادة الله) فيكون الشرك المحض ، وقبول التوبة أيضاً نعمة تستحق الشكر .

6- **نعمة الحياة بعد الموت :**

النعمة السادسة : هي أحياء الذين طلبوا من موسى المستحيل , فإنهم قالوا لموسى : (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) وهذا منتهى الطغيان والكفران للجميل , وكان عقابهم من الله تعالى أن أخذتهم الصاعقة وهم (يَظْلِمُونَ) , ولكن موسى طلب من الله

اعادة الحياة لهم فاستجاب الله لنبيه فأحياهم؛ فكانت نعمة أخرى عليهم تستحق الشكر .

7- تظليل الغمام :

النعمة السابعة : إنّ الله سبحانه بعد أن نـجّى بني اسرائيل من فرعون وواعدهم جانب الطور الأيمن , فطلبوا المستحيل من موسى قرر الله سبحانه أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة يمشون في النهار ويبيتون في الليل , ففي مدة التيه أنعم الله عليهم بتظليل الغمام لهم كي لا تلفح وجوههم حـرارة الشمس , وهذه نعمة أخرى تستحق الشكر.

8- انـزال المـنّ والسّلوى :

وفي التيه أيضاً أنعم الله على بني اسرائيل بأن أنـزل عليهم من الأغذية اللذيذة المنّ ، وهي : عصارة لذيذة أو خبز كان ينـزل عليهم كل ليلة , والسّلوى وهي : طائر شبيه بالحمام ليتنعموا به في التيه , وكانت تنـزل عليهم بقدر ما يحتاجون إليه في كل يوم , فكانوا

في ضيافة الله سبحانه في تلك المدة الطويلة , وهي نعمة أخرى تستحق الشكر من بني اسرائيل , لا الطغيان .

9- التقشف والقناعة :

النعمة التاسعة من آثار الحرية والإستقلال : التقشف في

الحياة , فإن الحرية تستلزم العمل لصيانتها , والذل والمسكنة تستلزم الخضوع لسيادة الآخرين , ومثل الله تعالى بأبرز مثال لذلك وهو الطعام ، وطبيعة الأرض الجبلية التي تحصّن فيها موسى(ع) وقومه ، ووعرة الأردن - اليوم - كما أنها لم تكن صالحة للزراعة ، وتستلزم الحياة فيها الصبر (عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ وهو ما منّه الله عليهم من السماء من المنّ و السّلوى من الطير , فطالبوا موسى من مختلف أنواع الطعام : (البقل) من الخضار التي تنبت في الأرض , و(القِثّاء) الخيار , (الفوم) الحنطة , و(العدس) , البصل الذيى قلَّ ما يكون طعام بدونه .

وهذه الأنواع لم تكن متوفرة في منطقة جبلية كالتي كان فيها بنو اسرائيل , فكان الخيار لبني اسرائيل بين أمرين : الحياة مع الإستقلال ، وهي تستلزم التقشف , والحياة بدون استقلال ، وهي تستلزم الذل , وطبيعي أنهم أرادوا الحياة بدون استقلال , كما يدل عليه الإستفهام الإنكاري : (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ) الحياة مع الذل (بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) الحياة مع

الاستقلال؟ (اهْبِطُوا مِصْرًا) المدينة التي يحكمها العدو الذي يتحكم في حياتكم (فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) ولكن يلزمكم (الذِّلَّةُ) , وهو الهوان , و(وَالْمَسْكَنَةُ) السكن والراحة .

والضرب بالشئ - في قوله تعالى:(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ) - تعني الإحاطة ، (وَبَاءُوا) أي رجعوا إلى (غضب الله) لاختيارهم الذل والصغار ، ورفضهم الحرية والاستقلال ، وهذا شأن أيّة أمة تفضل الراحة على الإنتاج والتبعية والذل للاستعمار على الاستقلال ؛ لأن ذلك عدوان وكفران على الله والرسول .

الخاتمة :

وختم الله سبحانه هذه النعم التي أنعم بها على بني اسرائيل نتيجة للإيمان والكفر ، والتي تستلزم أن تعتبر بها كل أمة تريد الإستقلال في المبادئ ؛ فالإيمان بالله بأيّ دين كان يتقوّم على ثلاثة أسس :

1- الإيمان بالله . 2- الإيمان باليوم الآخر . 3- العمل الصالح .

ويتبع هذا الإيمان الأجر الآلهي من الله (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وهذه النعم التسع تستدعي الإستقلال الفكري ، ومنه تنبع أنواع الاستقلال الأخر .

10- الميثاق :(الآيات63-74 من البقرة)

والنعمة العاشرة : الميثاق ، ويظهر أن الميثاق في بني اسرائيل كان يتكون من دعامتين هما :

1- المحافظة عليه (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) بالدراسة والقراءة.

2- العمل به (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ) بالعمل على طبقه .

هذا من جانب بني اسرائيل ، ولعله لخوفهم من وقوع الجبل عليهم خضعوا لهذا الميثاق قال سبحانه : (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[13].

إلا أنهم (تولوا) ، واعرضوا عن الميثاق, والله لم يعذبهم وإن استحقوا العذاب بمخالفتهم , فأنعم عليهم (فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) .

وذكر سبحانه مثالاً لنقض الميثاق ليكون عبرة لغيرهم وهو حرمة السبت ، حيث منعوا من صيد السمك في البحر في ايلات (العَقَبة) في آخر الحدود الأردنية , وقد زرتها ووجدت الماء فيها حلواً مع أن مياه البحر مالحة غير صالحة للشرب , وأهلها مسلمون , واستحقوا بعصيانهم أن يكونوا (قِرَدَةً) في حياتهم يحاولون محاكاة من يحكمهم في الأعراف والتقاليد وكذلك يكونوا (خَاسِئِينَ) أي مطرودين يستحقرهم الحاكم والتاريخ، ومبعدين من شرف الإنسانية إلى حضيض الحيوانية .

****

---

[13] - سورة الأعراف : 171 .

11- **إحياء القتيل :**

النعمة الحادية عشرة : ذبح البقرة لمعرفة ما لا يعرف إلا بالإعجاز الآلهي , ولإهمية هذة النعمة سمّيت السورة بالبقرة ، وقصتها : أنّ أحد أغنياء بني اسرائيل قتل أحد أقرباءه ، ثم اتهم القاتل آخرين أبرياء بذلك ، وادّارؤوا : أي اختلفوا في ذلك وتحاكموا إلى النبي موسى عليهم السلام ، وحكم - بالوحي - أن يذبحوا بقرة ، ويضربوا القتيل بها , فيعود إلى الحياة - بالإعجاز - ويخبر عن القاتل ، فتلقى بنو اسرائيل هذا الجواب بسخرية (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) وسخرية ؟ وأكبر موسى (ع) نفي ذلك (أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أفأأقول من نفسي شيئاً لا يستند إلى الوحي؟، وتكرر السؤال ثلاث مرات عن البقرة وأوصافها :

أولاً - المطلوب تحديد عمر البقرة ، فقال : (لَا فَارِضٌ) كبيرة في العمر ، (وَلَا بِكْرٌ) صغيرة (عَوَانٌ) متوسطة في العمر .

ثانياً - السؤال عن اللون ، مَا لَوْنُهَا ؟ قال : (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ) شديد الصفرة وهي اللون (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ).

ثالثاً – تحديد المراد من صفات أخرى ، قال : (لَا ذَلُولٌ) فليست ذليلة فهي لا تثير (الْأَرْضَ) ولا تسقي الحرث (مُسَلَّمَةٌ) سالمة من العيب (لَا شِيَةَ) أي

لا علامة (فِيهَا)، وأخيراً فعلوا ما أمروا به ، وعاد المقتول إلى الحياة ، وأخبر بالقاتل بقدرة الله (كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ) .

وفي أحياء القتيل بهذه الصورة ، وإبراء ساحة الأبرياء لنعمة تستوجب الشكر ، ولكن هذه النتيجة لم تؤثر في القلوب القاسية لأنها (كَالْحِجَارَةِ) في القسوة (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ) ما يستجيب لعوامل الطبيعة وضغط المياه (يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) أو يحدث شقّ فيه (فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) من دوه جري أو ينزل من علوّ و(يَهْبِطُ) على الأرض ، كل هذه الحالات تدل على أن الطبيعة مسيّرة بأمر الله تعالى ، وكل ذلك (مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) تعالى ، وأن الله مقدر الأمور كلها بقدرها ، والله ليس (بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وانقاذ البريء من تهمة القتل نعمة تستوجب الشكر .

الميثـاق

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ

يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82)) .

أسباب الكفران وأثاره :

في هذا المقطع عرض لأسباب الكفران للنعم يستعرضها سبحانه ليعتبر بها بنو اسرائيل والمسلمون على حد سواء ، فإنّ المتأمل في النعم يتوقع منه الشكر والعمل بمتقضى تلك النعم ، مع أن ذلك كله لم يحصل في بني اسرائيل ، بل في كل نعمة عقبت بكفران بها

واستحقوا بذلك تنديداً ، فلا بُدَّ أن يكون رد الفعل هذا من سبب هو الأصل في الكفران والعصيان .

ونذكر هنا من الأسباب :

1- التحريف من العلماء المتواجدين في بني اسرائيل أو أية أمّة .

2- النفاق من الخاصة .

3- الجهل من العامة .

والمسلمون يجب أن يعتبروا بما حصل في بني اسرائيل جرّاء هذه الأسباب ، وهي التي توجب تبرير المواقف المعادية والخاطئة ـ كما هو الحال في كل أمة معتدية ـ فإنّ المشاكل آنية وستمر وتنسى ، وأنّ الشيوخ يموتون والصغار يشبّون ، وبالتالي يؤكد القرآن أن هذا التبرير خاطئ ، فإنّ لكل فعل رد فعل مهما طال الزمن ، وإليك بيان ذلك بإيجاز :

أولاً ـ التحريف :

وحصل هذا من فريق من العلماء الذين كانوا (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فقد كانوا يدرسون الجانب المعارض دراسة موضوعية كاملة لا بهدفٍ سوى معرفة ما يمكن أن (يُحَرِّفُونَهُ) ، ويجعلوا بذلك الحق في مظهر الباطل والعكس شأن الأعلام المجعولة في الطرق بحيث إذا حرِّفت فإنّ الإنسان سوف يتجه نحو مسيرة باطل وهو يظن أنّه الحق الذي لا ريب فيه بسبب التحريف لمحتوى الرسالة ، ونجد هذا في كل دين أو مبدأ في

التأريخ فإنّ العدو يجعله شعارات فارغة لا محتوى لها بسبب التحريف المتعمّد للأهداف التي تضرُّه .

الثاني ـ النفاق :

وهذا من الفريق المتوسط الذي لا يريد سوى كسب مصالح شخصية والنفع المادي ، فهؤلاء دورهم إرضاء الأطراف المعنية (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) وبذلك يظنون أنهم خدعوا المشتري (وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ) استهزئوا بالمؤمنين وشجّعوا الكافرين بالإعتزاز بمبادئ الكفر قائلين : (أَتُحَدِّثُونَهُمْ) أي المؤمنين (بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) أي بما أنعم عليكم ، وهذا يعني أنهم يقولون لا ينبغي أن يعرف المؤمنون ما يتمتع به الكفار من العلم أو الثقافة والقوة فإنّ معرفتهم ذلك يكوّن حجّة لهم ، فهم يُحَاجُّوكُمْ (بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) ، وأنه ليس من العقل أن يطلع العدو على مواطن القوة (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فإن ذلك خلاف المنطق العقلي .

والله سبحانه يندد بهذا النوع المتوسط المنافق فإن هذا النفاق قد يؤثر في المجتمع فترة ولكنه لا يخفى (على الله) فإنه (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) فالسرّ والعلن سواءٌ لديه ، والحقائق سوف تنكشف وبانكشافها تكون الكارثة شديدة عليهم ، لأن الثقة مصدر التعامل في الحياة وبانعدامها تنعدم الحياة السعيدة .

الثالث ـ الجهل :

وهذا الفريق هو الغالب في المجتمع فهم (أُمِّيُّونَ) غير مثقفين بالثقافة الصحيحة وإن كانوا يقرؤون ويكتبون فإنهم (لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ) على أنّه لتحمّل المسؤولية ، بل إنهم يدرسونه كوسيلة لتحقيق (أَمَانِيَّ) في قلوبهم ، وليس ذلك العلم المسؤول (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً .

وهذه صفة العامة في كل أمّة ، فإنهم يرويدن الحياة من دون مسؤولية ، ويحاولون بكل الطرق المتيسرة تجاوز القوانين التي تنظّم المجتمع ، سواءً بالتحريف أو النفاق ، ويظنون أن ذلك هو المجتمع الافضل لـمّا يسّر لهم من مبررات .

تبرير الموقف :

والموقف اليهودي يمكن أن يبرّر هؤلاء من ناحية

مادية وفكرية .

1- **المبرر المادي :**

هو وضع القوانين التي تخدم مصالحهم ، فهم (يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) وبسبب التحريف المتعمد من العلماء (يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) وطبيعي أنهم لم يقوموا بهذا التحريف من دون ثمن ، بل (لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) من مال أو وظيفة ، إذ أن هذا الثمن سوف يزول بزوال الثقة .

فيكون له الويل بما (كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ) بالتحريف المتعمد و(مِمَّا يَكْسِبُونَ) من التجارة التي لا تكسب الثقة .

2- **المبرر الفكري :**

وهذا الموقف اليهودي : أن العقوبات على الكفران والعصيان وقتية زائلة ، فهي (النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَعْدُودَةً) شأن كل العقوبات في الحياة ، وسوف تُنسى وتُنسى أسبابها ، والله يؤكد العكس بأنها ليست وقتية حيث لا معاهدة على هذه المدة المزعومة ، وليست سوى دعوى من دون دليل .

والحقيقة التي سوف تبقي أن لكل فعل ردُ فعل (مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) غمرت به المعاصي من جميع جوانب حياته من دون توبة (فَأُولَئِكَ أصْحَابُ النَّارِ) وليس مقامهم فيها محدوداً ، بل (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ، وعلى النقيض فإنّ الذي استحق النجاح (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فيكون مقامهم في الجنة خالدين فيها أبداً و(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

والفرق أن هذا عهد من الله لمن آمن وعمل صالحاً .

المقطع الثاني عشر

أنـواع الميثـاق

(وَإذْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إلَّا اللَّهَ وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وَذِي القُرْبَىٰ وَاليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ

وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)) .

ظاهر (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) والآية(84) (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ)الخ ، أن يكونا سرداً للنعم التي أمر بنو اسرائيل أن يذكروها بقوله : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ (40)) وليس الأمر كذلك ، إذ ليست هذه نعم غير سابقتها ، بل في الآية(63) ذكرها بقوله :(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) مع أن هذه الآيتين ذكرتا بعد ذكر النعم وختمها بأسباب الكفران ، والعبرة المطلوبة فيها ، بل أظن ـ والله العالم ـ أن ذِكر هاتين الآيتين لبيان أقسام الميثاق ، فقد ذكر اجمالاً في الآية(63) فهاتان تفسير لها ، والميثاق في بني اسرائيل نوعان :

1- الميثاق العام مع عموم الناس .

2- الميثاق الخاص مع خصوص بني اسرائيل .

ألف ـ الميثاق العام : الذي أخذه على كل الأمم فأخذه أيضاً على بني اسرائيل وفيها تعاملهم وتكاملهم النفسي وتحقيق العدالة في المجتمع ويتقوّم من :

1ـ العبادة لله (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) دون المادة والجاه والمقام .

2ـ الإحسان بالوالدين .

3ـ وصلة الرحم ذي القربى .

4ـ واليتامى .

5ـ والمساكين .

6ـ وابن السبيل .

7ـ القول الحسن للناس عامة .

8ـ إقامة الصلاة .

9ـ إيتاء الزكاة .

هذه الأركان التسعة قوام أيّ مجتمع عادل ، وبنواسرائيل حسب النص القراني لم يلتزموا جميعاً بهذا الميثاق العام (إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ) منهم ، وهذا القليل أيضاً لم يكن ليبادر بها بل كان يتحاشى وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) عن المواجهة واتخاذ موقف ايجابي منها، بل قام بها حينما جوبه بالواقع الذي فرض ذلك عليه .

ب ـ الميثاق الخاص : وهذا الميثاق أُخذ من خاصة من بني اسرائيل للتعامل مع أنفسهم للظروف الخاصة بهم ، وقوام هذا الميثاق المؤكد بالإقرار من جانبهم والشهادة أمام غيرهم كتباً وشفهاً ، وقوام الميثاق ثلاثة :

1- عدم سفك الدماء .
2- عدم التسفير من الديار .
3- عدم التعاون بالإثم والعدوان ، والتظاهر : التعاون .

والقرآن وإن لم ينص على هذا الميثاق بالأرقام , ولكنه يشير إلى تناقض حصل في مواقف بني اسرائيل , فهم من ناحية يعترفون بهذا الميثاق (أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) ولكنَّ أعمالهم تناقض إقرارهم , ويذكر مثالاً لذلك هو مسألة الأسرى , فمن ناحية هم يخرجون الجيش للحرب الأهلية بعضهم على بعض ، وكان من بنود الميثاق أنّه (مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ) ، ومن ناحية أخرى حينما يقعوا في الأسر يتفاوضون على الفداء (يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ) لتحريرهم من الرق بعد أن وقعوا في الأسر , وما هذا التناقض إلا بسبب نقض الميثاق ؛ إذ لو لم يخرجوهم للحرب لما كانت حاجة إلى الفداء ، فالصبغة العدوانية هي التي حملت بني اسرائيل على هذا التناقض .

والنتيجة : أن هذا التناقض في المواقف يكشف عن الطبيعة العدوانية والتحالف مع كل قوة أخرى محلية أو عالمية وراء المصلحة الذاتية .

والإيمان (بِبَعْضِ الْكِتَابِ) وهو قبول الفداء للأسارى ،

أو الكفر (ببَعْضٍ) وهو الميثاق بالسلام وعدم اخراجهم نتيجة هذه الإزدواجية في الموقف . ويتبعها أمران :
1- الخزي في الحياة الدنيا بنقض مواثيق السلام .
2- أ شد العذاب يوم القيامة .

وطبيعي أن الله ليس (بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) أيها المعتدون، وليس هذا سوى تفضيل مصلحة الدنيا على الآ خرة فكأنهم (اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ) ونظروا إلى المصلحة الوقتية للظفر في الحرب , دون الآخرة التي هي السّلم ، وطبيعي أن أيّ حكم قائم على العدوان يكون خائفاً من كل هاجس بالثورة (فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ) النفسي الدائم في الدنيا والموعود في الآخرة (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) لأنهم ظالمون .

وهذه الظروف السياسية التي أوجبت هذا النوع من
الميثاق لم يُشر إلى تفاصيلها في القرآن , ولكنّ التفاسير أشارت إلى بعض مواقف اليهود في المدينة وصراعهم فيها .

فكلٌّ من (بني قينقاع) و(قريظة) و(بني النظير) بين انفسهم من جانب , ومع الأوس والخزرج من جانب آخر , فكلٌّ من الثلاثة عقد تحالفاً مع الأوس تارة والخزرج أخرى حسب المصالح التي تحكمهم . فمن جانبٍ كان اليهود يحارب بعضهم البعض بأنواع من الحرب والنفسي والتسفير وحتى القتل , ولكن إذا وقع يهودي في أسر العرب حاولوا الفداء له , وهذا

ليس نابعاً إلا من العنصرية ونكران المبدأ الذي قام عليه دينهم , فإذاً تحقيق العدالة هو تطبيقها من عدم الإخراج للحرب من حيث المبدأ , وإذا استحق أحدٌ منهم القتل أن تنفذ العقوبة فيه من دون فداء .

فإذا كان الحكم - أي حكم - وأمّة أي أمّة - لا يبتني على العدالة ؛ فلا بُدَّ وأن يكون مصيرها الخزي في التأريخ والعذاب في الآخرة .

المقطع الثالث عشر

بنو اسرائيل والرسل

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)) .

بنو اسرائيل والرسل :

في هذا المقطع يستعرض القرآن الكريم مواقف بني اسرائيل مع الرسل (موسى وعيسى ومحمد) ويحدد أهداف الرسل بأنها واحدة وهي عدالة السماء , وعلى النقيض من أهداف الكافرين التي هي المصلحة

الذاتية والإستكبار ومقاومة ما (لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ), وبإحدى الطريقتين : إما الدعاية الكاذبة (فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ) وأما بالإعدام (وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) وعذرهم في هذه المقاومة ضد رسالة السماء أنّ قلوبهم (غُلْفٌ) أي عليها غشاوة , بمعنى جهل عما تدعو إليه الرسالة , وعدم معرفة حقيقتها وعدم الإيمان بالوحي .

والله يندد بذلك بأنه ليس جهلاً , بل عناداً ؛ لأنها تخالف

أهواءهم وموافقهم تجاه الرسل , وتبين ذلك :

1- أنّ النبي موسى عليه السلام جاء بالكتاب (التوراة) ولكنه جوبه بالتكذيب (كَذَّبْتُمْ) .

2- وأن النبي عيسى عليه السلام جاء (مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) بالبينات (الإنجيل) مؤيداً (بِرُوحِ الْقُدُسِ) ولكنه جوبه بالقتل حسب اعتقادهم (وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) .

3- وأن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالقرآن الذي يصدق ما في التوراة والإنجيل , ولكنّه جوبه بالتكذيب , مع أن اليهود كانوا قبل مجيء محمد (يَسْتَفْتِحُونَ) أي يستدلون على غيرهم من الكفار بمجيء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنصوص المذكورة عندهم من كتبهم , ولكن لما (جَاءَهُمْ) محمد برسالة الإسلام وعرفوا الحقيقة كذبوه لمعارضته لمصالحهم الذاتية (فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

فلا يختلف إنكار نبوة موسى أو عيسى من أنّه إنكار لما يخالف الهوى , فإنهم اشتروا الكفر (بِمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ) فهم لا يفهمون إلا لغة التجار بالشراء والبيع فباعوا بالكفر أنفسهم (بَغْيًا) أي حسداً من أن تنزل النبوة على العرب بدلاً عن اليهود الذين اشتروا لأنفسهم الكفر بدلاً عن الإيمان , فهم يحسدون إنزال الله النبوة (عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) سواءً كان من بني اسرائيل أم من العرب , ومن أجل ذلك أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهم يستحقون غضبين , الأول : (غَضَبٍ) من الله لأجل عصيان موسى , والثاني : الغضب من إنكار محمد (فَبَاءُوا) أي رجعوا (بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ) ، وهذان الغضبان بينهما (عَذَابٌ مُهِينٌ في الآخرة) .

المقطع الرابع عشر

نبوة محمد (ص)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ

بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)) .

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم :

الرسالات السماوية واحدة والمواقف المعارضة لها

كذلك , ولذلك فإن القرآن استطرد مبرّرات اليهود ثم ردها بفصولها , ومن جملة المبرّرات أنهم ادعوا أنهم أصحاب كتاب وهو التوراة (قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) وقولهم : أنه يكفي الإيمان بالتوراة ولا حاجة إلى القرآن .

ويتلخص الرد نقضاً وحلاً بأن أفعالهم في التأريخ يبيّن أنهم لم يؤمنوا بشيء سوى مصالحهم :

1- إن كانت التوراة تكفيكم (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ) ؟ فوجود التوراة وحده لا يكفي .

2- (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ) ولكنكم لم تتبعوه عند غيابه, بل (اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ) فعند غياب موسى لا بد من نبي وهذا دليل آخر على أنكم لا تؤمنون بما أنزل عليكم .

3- في عهد موسى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) قلتم : (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) وذلك يدل على أنكم لم تؤمنوا بما أنزل

عليكم ، فإذا كان معنى الإيمان عدم العمل بأوامر الله فـ (بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ) .

4- إن كان مجرّد الإعتقاد بالكتاب والتوراة وحده يكفي في النجاة في الآخرة , فيجب أن يفضِّل المعتقد الوصول إلى النجاة ولو بالموت , وهذا ما لا يتمناه منكم أحد , بل أنتم أحرص الناس على الحياة , فإن كان الله أختاركم كما تدعون فيجب أن تكونوا أحرص الناس على الآخرة من الدنيا , مع أنهم (أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ) الدنيا من الآخرة ، وليسوا أحرص من المسلمين فقط , بل هم أحرص على الحياة من (الَّذِينَ أَشْرَكُوا) أيضاً , فإن المشرك لا يتمنى الحياة كما يتمنّاه اليهودي .

هذا كله لا ينجي أحداً من العذاب لمن يستحقه (لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) فأن عذاب الكفر والعصيان لمن يستحقه وسوف يلحقه مهما طال عمره , وطول العمر لا يزحزحه عن النتيجة, وهو (الْعَذَابِ) ، (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) من عدل وظلم فيجازي كلاً حسب استحقاقه .

المقطع الخامس عشر

العداء لله

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99)) .

وحدة الرسالات :

وفي الخاتمة يؤكد القرآن الكريم على وحدة الرسالات بأنها تلتقى الوحي الآلهي بواسطة جبرئيل , سواءً في ذلك موسى وعيسى ومحمد , وأن اليهود الذين يعلنون العداء لجبرئيل الذي نـزل بالوحي إلى محمد (ص) ما هو إلا إعلاناً للعداء لكل الرسل , فهو نفسه الذي اختاره الله للوحي إلى موسى وعيسى فلم يكن عمله إلا (بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو (نَزَّلَهُ) أي القرآن (مُصَدِّقًا) وسائراً على مسيرة الأنبياء من قبله (لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ للهداية وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) بعد أن انتهى عصر موسى وعيسى , فالعداء لجبرئيل عداء للرسالة (لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) وليس عداءً خاصاً لجبرئيل ، وطبيعي أن يستتبع ذلك عداءً (اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) ، والقرآن ليس إلا (آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) كما كانت بينات لكل من موسى وعيسى ، والكافرون بها ليس (إِلَّا الْفَاسِقُونَ) .

فإن طبيعة أيّة دعوة إصلاحية أو رسالة سماوية أنّ كلما عاهد أحدهم عهداً نبذه فريق منهم لمعارضتها لمصلحتهم الخاصة وهم الأكثرية , فإن (أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وقليل من يلتزم بالمبادئ.

المقطع السادس عشر
مقيـاس الإيمـان

(أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)) .

بين الدعوة والتطبيـق :

في هذا المقطع نجد مقياساً لتقويم الطوائف التي تدعي الإيمان وتتعاهد على ذلك , فهل يكفي مجرد الدعوى من دون أي تطبيق وعمل ؟ وهل يكفي (العهد) وحده إذا كان العهد قد (نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) من أصحاب القدرة على التنفيذ ؟ فإن العمل والتطبيق للعهد هو المقياس في الإيمان , وليس الكلام الفارغ , كما كان من اليهود فقد أثبتوا خلاف ذلك في مواقف :

1- نقض العهد من أصحاب القدرة منهم , وتبعهم غيرهم , فهذا يدل على أن (أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

2- عدم العمل بما في كتبهم من أصحاب الكتب التي تبشّـر بالرسول المصدق (لِمَا مَعَهُمْ) وهذا يدل على أن حال العالم

الغير العامل بعلمه والجاهل (كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .
3- اتبعوا الشياطين في قصة ملك سليمان بدل أن يتبعوا رسل الله ، فدعوى الإيمان دعوى فارغة منهم .

ملك سليمان وبابل :

والآيتان(102و103) تشيران إلى حدث تاريخي في ملك سليمان وأعدائه البابليين ، وأن الصراع كان بين سليمان في ملكه في بيت المقدس من ناحية وبين البابليين الذين ملكهم بِبَابِلَ في العراق ، وأن هذا الصراع استخدم (السحر والإبهام والكفر) لسليمان كما هي العادة في كل صراع سياسي ديني , ونزّه القرآن سليمان من الكفر ، واتهم المتمردين عليه (الشَّيَاطِينُ) باستخدامهم (السِّحْرَ) وإبطال الله سبحانه طرقهم ، فقال: (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) وقاموا بإضلال المؤمنين (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) ، ودعوى أن المؤثر في الحياة هو السحر وليس إرادة الله.

ولما أخذت هذه الأضاليل تؤثر في الناس أرسل الله (المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ) أي في العراق (هَارُوتَ وَمَارُوتَ) لبيان الفرق بين الإعجاز والسحر ، وتثقيف الناس بالأسباب المؤدية للسحر وطرق إبطاله وهما يحذّران الناس (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) أي امتحان لتعليم الفرق بين المعجزة الآلهية والسحر فكانوا يصفون الداء والدواء ، ولكن الناس بدل أن

يأخذوا بالدواء كانوا يتعلمون (مَا يَضُرُّهُمْ) و(مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) ويتركون العلاج ، لذلك فقد اختار الناس الكفر بحرّيتهم وإرادتهم .

ويختم المقطع بأن الله قدّر الأشياء على أسبابها ، وأنّ الضرر المحسوس إنما هو على أساس قانون القدر الإلهي (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) ، وأن القائم بهذه الأعمال ليس له (فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) أي نصيب ، وأن هذا النوع من التعامل في الحياة ليس إلا خسراناً ، وأن الإيمان بالله هو الأفضل ، لأنه هو الخير (لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ) ، وأن المانع عن هذه الرؤية هو الجهل .

المقطع السابع عشر

الدعايات الباطلة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا

حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)).

مواقف المسلمين :

في هذا المقطع يشير القرآن الكريم إلى مواقف المسلمين بالإعتبار من موقف اليهود تجاه النبي (صلى الله عليه وآله) ورسالته وخاصة نقضهم العهود باتباع الشياطين وطرقهم السحرية والتي منها الكلام السحري والدعايات الباطلة ، وذلك بالعمل على نقيض أعمالهم وتقويض أهدافهم وذلك بنقاط :

1- التجنب من الدعايات الكلامية في الحديث , وذلك بتجنب التحريف المقصود ، وعلى سبيل المثال (لا تَقُولُوا رَاعِنَا) واستخدموا كلمة أخرى مرادفة وهي (انْظُرْنَا) وذلك لأن المسلمين قصدوا بكلمة (رَاعِنَا) طلب فعل ، أي : كن راعياً لنا ، واجعلنا تحت رعايتك ، فهو طلب لمتابعة القائد ، ولكن اليهود من جانبهم حرّفوا الكلمة إلى (رَاعِنَا) بالتنوين وتعني الرعونة والخشونة ، وقد فسرت ذلك قوله تعالى : (من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ...)[14].

---

[14] ـ سورة النساء : 47 .

2- الحذر من العدو ؛ لأن الأعداء دائماً سواء (مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلَا المُشْرِكِينَ) ما يَودوا (أَنْ يُنَزَّلَ) على المسلمين (مِنْ رَبِّكُمْ) فيجب الإنتباه إلى أن ما ينصح به العدو ليس إلا خيراً لنفسه واتخاذ الحذر من مقترحاتهم .

3- رفض الجمود , لأن نسخ الأحكام في ما سبق بواسطة الإسلام سواءً كان رجاء التأخير والنسيان - على القراءتين - ليس إلا لأن الجديد (خير) ، وانفصل منها (أَوْ مِثْلِهَا) لمصلحة إلهية في ذلك ، والله هو (عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) سواء في الماضي أو الحال أو المستقبل .

فلا بُدَّ من رفض الجمود على القديم لقدمه فقط ، بل أن يُتبع ما هو (خير) ، وأفضل مقدر من الله الذي (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

4- أن (الولاية والنصرة) من الله فقط , وليست مواقف الأعداء وخططهم ناجحة لو كان الإيمان بالله وثيقاً .

5- إن واجب الرسالة محدّد بالرسالة - لا أكثر - وإحراج

الرسول بما ليس في طاقته جهل بالرسالة كما فعل اليهود مع رسلهم (كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ) - وما أكثر ما سألوا - من رؤية الله جهرة وغير ذلك ، وأن الجهل بالرسالة ضلال (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) .

6- أن كثيراً من أهل الكتاب يحاولون إضلال المسلمين بدعوى الإصلاح , وهو في الواقع ليس إلا (حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) لأنهم قد (تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) ، وأن غرورهم يمنعهم من الرضوخ للحق , فهم مرضى يحاولون أن يبلوا الآخرين بمرضهم حسداً , لوجود شخص مسلم صحيح معافى .

وموقف المسلمين يجب أن يكون (العفو والصفح) عن هؤلاء الأعداء (حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وعلى النقيض من اليهود الذين ينقضون العهد , فإنه يجب على المسلم أن يلتزم بالعهد وخاصة الأركان الثلاثة (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ) ، ولا شك أن العمل بهذه الأركان له أثر , وهو (تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ) و(إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

المقطع الثامن عشر

الجنـة

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)) .

مواقف أهل الكتاب :

من هذا المقطع استعراض لأهم مواقف أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وهي :

1- أن الجنة ليست إلا لمن (مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ) وهذا موقف عنصري نابع من (أَمَانِيُّهُمْ) في أنفسهم بلا أي دليل أو برهان , حيث أن الجنة فضل من الله ، وصاحب الفضل له أن يمنحه لمن يشاء , وتحديدها من قبل غير الله ليس إلا تحديداً لقدرته وإرادته , فليست

تلك إلا (أَمَانِيُّهُمْ) وليس برهاناً , وإن كان لهم برهان سوى الدعوى المجردة عن الدليل , وعلى النقيض , فإن الإسلام يرى أن الجنة أجرٌ من الله لكلّ (مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) سواء كان مسلماً أومسيحيّاً أو يهوديّاً أو غير ذلك بشرط (الإحسان) وأنّ (أَجْرُهُ) هذا مذخور (عِنْدَ رَبِّهِ) ، وأنّ نتيجة (الإحسان) أنْ لا (خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

2- أنّ كل طائفة تُـخَطِّئُ الطائفة الأخرى , فاليهود قالت : (لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ) ، والنصارى قالت : (لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ) ، وقال : (الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) من ليس بيهودي ولا نصراني قالوا : (مِثْلَ قَوْلِهِمْ) يعني ليست أهل الكتاب على شيء .

وعلى النقيض , فإن الإسلام يرى أن العمل هو الأساس, وليست الدعوى فقط , والله سبحانه وحده (يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) .

3- أنهم يمنعون (مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) بإلهاء الناس بأهوائهم ونظرياتهم , ويستعملون كل وسائل الحروب النفسية وغيرها للسعي فِي خَرَابِهَا ، والتفريق بين المؤمنين فيها , وتقليل نفوسهم عدداً ، وسوف يشهد التأريخ (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) نقطة سوداء في سجلّهم الوحشي , (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وعلى النقيض , فإن الإسلام يرى أن (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ)، والأرض كلها مسجد لله , وأنه من آياته , فإذا هدمت المساجد على الأرض فإن مساجد

المؤمنين تكون عامرة في قلوبهم أينما كانوا يتوجهون إلى الله (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

4- ادّعاءهم على الله الأباطيل ونسبة الصفات البشرية إليه (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) فكيف يوصف خالق الكون بصفات الحيوان الذي يتوالد ؟ (سُبْحَانَهُ) وتقدس من كل صفات الحيوانية والمخلوقات كلها ؛ لأنه هوخالقها ، وله ما في السماوات والأرض ، وكل شيء فيها (لَهُ قَانِتُونَ) فكيف يمكن أن يتصف بصفة حيوانية هي التوالد واتخاذ الولد ؟ فليس من الله سبحانه سوى الخلق لا التوالد للمخلوقات , وليس إيجاده للمخلوقات إلا بالقضاء (فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ، وهذه هي الصفة المائزة بين الخالق والمخلوق ؛ لأنه (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي خالقها .

5- طلبهم (كلام الله) مباشرة أو (آية) كونية محسوسة . وهذه طلب (الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) بأن صفات الخالق تختلف عن صفات المخلوق ، (والرؤية) إنما تصح في المحسوسات ، (والآية) محسوسة والله سبحانه منزّه عن الحسّ , وإنما يدرك بالعقل , فهذا الطلب قد سبق في التأريخ من (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) لاشتراكهم في إهمال العقل , وأتباع الحسّ ، قال اليهود : (لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) فقط تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) وأقوالهم , و (قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ) لكل ذي عقل ، والقوم الذين لا (يُوقِنُونَ) بما يحكم به عقولهم لا حواسهم فقط.

وليس للرسول دور سوى أداء رسالته (بالحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) وليست مسؤوليته أكثر من ذلك , ولا يسئل (عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيمِ) .

وخاتمة هذا المقطع حقيقة يشهد لها التأريخ , وهي أنه (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) ، وهذا نابع من الغرور وللسيطرة على غيرهم , مع أن الهُدَىٰ) يجب أن يكون بالإيمان بالله من دون هوى طائفة أو أخرى .

وليس بعد الحق إلا الضلال ، وليس متابعة الهوى بعد (العِلمِ) إلا الخسران حيث يكون (مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) لأنه رفض للعلم الذي أكرم الله الإنسان به , فكيف يكون النصر لمن لا ينتفع بنور العلم ؟ .

فالخيار للعباد بين الكفر والإيمان , وليس ذلك إلا بالعمل (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ) من اليهود والنصارى والمسلمين الذين (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) بالعمل به من دون تحريف لمفاهيمه (أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) , دون الذين يدّعونه من دون عمل ، والذي لا يعمل به فهو (يَكْفُرْ بِهِ) ، ويغطّي عقله عنه , وليس له جزاء سوى الخسران (فَأُولَٰئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ) .

المقطع التاسع عشر

دعوة إبراهيم

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)) .

دعوة إبراهيم :

يبتدئ هذا المقطع بتذكير بني إسرائيل زوال النعم التي أنعم الله بها عليهم كيف أنها كانت سبباً لتفضيلهم (عَلَى الْعَالَمِينَ) ، وأن زوال تلك النعم وكفرانها توجب زوال التفضيل في الدنيا والخذلان في الآخرة ، ويحذرهم بالدعوة إلى (التقوى) والحذر من يوم القيامة : اليوم الذي لا تكون فيه قيمة

للوسائل والوسائط المادية الدنيوية ، وهي على الأغلب :

1- (لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ) ؛ لأن في يوم القيامة كل مبتلى بنفسه (لكل امرئ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه)[15].

2- عدم قبول العدل , أي الفدية كما يقع نظيره في الحروب ؛ لأن الفدية لمن يحتاج إليها والله غنيٌّ عن عباده .

3- عدم نفع الشفاعة والوساطة التي تسهّل الصعاب في الحياة الدنيوية ، ولكن في يوم (فما تنفعهم شفاعة الشافعين)[16].

4- أن النصر بالحرب والمواجهة مع الطرف الآخر غير وارد ؛ لأن الله له يوم الدين ، ولا ناصر سواه , وقد أشار إلى هذه الوسائط الأربع في الآية(48) أيضاً ؛ لاستخدام العموم إياها في حياتهم العادية .

وبعد هذه المقدمة الرادعة الزاخرة يشير سبحانه إلى النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل والتي لم يقدّروها , والتي تعقبت سقوط حضارتهم وعلوّ حضارة الإسلام .

وأكثر ما يأتي من أحوال النبي إبراهيم (ع) إنما يتعلق بالجزيرة العربية , وهذا يعني أن الله سبحانه يخصّ بني إسرائيل بذكر ما هو في كتبهم من البشارات

---

[15] ـ سورة عبس : 37 .
[16] ـ سورة المدثر : 48 .

بإبراهيم ونسله التي أهمها مسؤولية استمرار النبوّة في صلبه , فهي نعم لهم ؛ لأنها إرادة إلهية لم يقدّروها وخصّ أمّة الإسلام للقيام بها .

مسؤولية القيادة :

1- والإبتلاء معناه الإمتحان , فقد ابتلى الله إبراهيم وامتحنه بمسؤولية القيادة , وذلك بكلمات تامة ، هي قوله : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ، فالإمامة والقيادة مسؤولية كبرى وليست للهو والفخر والزهو والعناوين الخيالية , بل هي للعمل والوفاء بالعهد الإلهي وأداء للأمانة .

وهذه نعمة كبرى أنعم الله بها على بني إسرائيل حيث جعل لهم قدوة لم تكن للأمم الأخرى فلم يقدّروه ولم يتبعوا مسيرته فأورثها الله غيرهم , والأظهر أن إبراهيم دعا إلى أن تكون هذه الإمامة في ذريته وأن الله سبحانه استجاب دعاء في (غير الظالمين) منهم , فكان على بني إسرائيل هذه النعمة على العدل وتجنّب الظلم .

2- عهد إبراهيم : فقد جعل الله (البَيْتَ مَثَابَةً) أي مرجعاً للناس وأمناً و(مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) ، وعقد عهداً مع (لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)، وهذه الطوائف تشكّل حالات العبادة والتقرب إلى الله , وذلك يعني اتخاذهم البيت مركزاً لعبادة لله وحده مجرّداً عن الشرك .

3- البلد الأمين : كان من دعاء إبراهيم الذي اتخذ (مكة) مهجراً له قائلاً : (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ)، وهذا الدعاء قد تحقق وأصبحت (مكة) منذ هجرة إبراهيم حتى اليوم من أعظم المدن أمناً ورزقاً ، تُحمل إليه كافة المنتجات من أنحاء العالم في أيام الحج ، وينتفع بها المسلمون شرقاً وغرباً , فهو البلد الذي ينعقد فيه المؤتمر الإسلامي العالمي (الحج) لكل المسلمين من كافة أنحاء العالم في كل عام .

وأنّ جزاء الكافر الذي لا يشترك في هذه الفريضة أمران:

أولاً : المتاع الدنيوي (فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا) .

وثانياً : العذاب الأخروي (ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ) .

4- أدعية إبراهيم , وليتذكر بنو اسرائيل كيف إن الله سبحانه استجاب لكل من إبراهيم وإسماعيل حين بناء قواعد البيت وهي :

1- قبول العمل (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ).

2- التسليم لله والإخلاص له دون غيره .

3- الذريّة المسلمة ، والمسلمون اليوم كثيرون في العدد دون العدة .

4- رؤية المناسك وطرق العبادة في الحج وغيره , فإنها واضحة المعالم .

5- التوبة من الله سبحانه , فإن بابه مفتوح للعاصين .

6- بعث الرسول فيهم بواجبات ثلاث محدّدة : تلاوة آيات الله, وتعليم الكتاب والتزكية , وهي أصول أيّة رسالة . وقد تحققت هذه الأدعية كلها .

المقطع العشرون
اليهود والنصارى

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)) .

اليهود والنصارى :

وفي هذا المقطع استعراض لتطوّر أمة إبراهيم بعد الجيل الثالث فتكونت أمم عُرف منها (اليهود والنصارى) تدعو كلاً إلى دينه , والقرآن يؤكد على رفض تحديد الديانة , ويدعو إلى التمسك بالمبادئ التي قامت عليها (مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) ، ويحدّدها بالتسليم لله تعالى (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) لنداءات دعا إليها وهي :

1- الإيمان بالله .

2- الإيمان بملة إبراهيم (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ).
3- الإيمان بالتوراة (وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ).
4- الإيمان بالإنجيل (وَعِيسَىٰ).
5- الإيمان بكل الرسالات (وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) .
وبالجملة (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ، فإن مصب هذه المبادئ الخمسة , هو الإيمان بالله فقط (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا) ، ومن تولى وأعرض عن ذلك فهم (فِي شِقَاقٍ) وخلاف مع المؤمنين ، وهم يتلونون حسب مصالحهم و(صِبْغَةَ اللَّهِ) لون واحد لا يتغير .

محاجة باطلة :

ويختم المقطع بمحاجة واضحة الأسباب والنتائج في
مرحلتين :
الأولى : للكفر عامة ؛ فمن لا يؤمن بالله وخالق الكون لا ينفعه شيء سوى العمل (وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) ، وليس هناك شيء آخر سوى أن لنا (أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) ، وكل عمل له نتيجة .
الثانية: لليهود والنصارى خاصة : وهي محاجة نقض حيث أنهم يؤمنون بإبراهيم أبي الأنبياء فلم لا يتَّبعون مبادءه؟، ولم يكن إبراهيم يدعو نفسه يهوديّاً ولا نصرانيّاً ، لا هو ولا أحد من أبنائه (إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ) ، بل كانت ملّته هي (الحنيفة) قامت بدورها في الحياة وأدّت مسؤوليّاتها بالعمل فـ(لَهَا مَا كَسَبَتْ) ، فليس لمن بعده سوى السير على نفس الطريق بالعمل .

ملة إبراهيم :

في هذا المقطع يشير سبحانه إلى (دعوة) إبراهيم الشخصية أي الـ (ملة) ، وبعضها في ما بعد (الحنيفة) أي الإستقامة . فبعد أن كان دعوة إبراهيم لأبيه فقط , أصبحت الدعوة سائدة للدين في المجتمع فأصبحت (مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) ، وتكون شعب قائم بذاته مبنيٌّ على أصل واحد هو (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) استجابة لقوله تعالى : (أَسْلِمْ) فأصبح إبراهيم المصطفى في الدنيا من دون سائر الناس , ومن (الصَّالِحِينَ) في الآخرة .

فالملة التي اصطفى الله قائدها لصلاحه يجب أن يُرغَب
فيه , فلا يرغب عنه إلا (السفيه) .

ولم يكتفِ إبراهيم(ع) بالدعوة بل (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) على أن (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

وأكّد يعقوب(ع) على بينه هذه الوصية عند موته فقال لهم : (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

فتكونت ملة إبراهيم من ثلاث أجيال هم : إبراهيم وأبنائه وأحفاده , وقد أدّت هذه (الأمّة) رسالتها

، وعملت بواصايها الإنسانية ، ويبقى على الأجيال المقبلة أداء رسالتها الإنسانية كذلك .

المقطع الأخير
خلاصة القسم الأول
الإسلام هو العقيدة الإبراهيمية

(وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)) .

قوله تعالى : (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا).

ختم الله سبحانه القسم الأول من سورة البقرة الذي هو في العقيدة وما يلازمها في هذه الآيات السبع التي هي خلاصة للعقيدة الإسلامية التي هي العقيدة الإبراهيمية الحنيفية من دون انحراف بالغلو في الجانب الروحي فقط كما في النصرانية ، والقصور على الجانب المادي فقط كما في اليهودية .

افتتح سبحانه المقطع الأخير بالإشارة إلى وجهة نظر كل من الطائفتين بقوله : (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ

نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا) فإن اليهودية ترى الحياة المادية فقط ، ولا تؤمن بالآخرة ، ويوم الحساب ، فترى الهداية بالتركيز على الجانب المادي في الدين فقط .

والإسلام يناقض ذلك قائلاً :" اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " ، ويوجب التوازن بين الدنيا والآخرة

والنصرانية لا تشريع لها في الحياة المادية ، فترى الإيمان بالسيد المسيح كافياً في الهداية مهما بلغت الأعمال الفاسدة من الإنسان لفصلها بين العقيدة والعمل .

والإسلام يناقض ذلك قائلاً :" بأن الإيمان هو الإعتقاد بالجنان ، والقول باللسان ، والعمل بالأركان " فإن التوازن يجب بين هذه الأركان حتى تتحقق الهداية .

خصائص العقيدة الإسلامية

ثم أشار سبحانه إلى أن خصائص هذه العقيدة هي التي يدعو إليها الإسلام ، وأنها هي العقيدة الإبراهيمية الحنيفية التي هي رسالة السماء التي أوحاها الله تعالى على لسان الأنبياء ، وهي التي تتميز بخصائص تعتبر الأعمدة السبعة للعقيدة الإسلامية .

أولاً : اعلان العقيدة

قال تعالى:(قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (135)

بأن ـ ما عدا الإسلام ـ من الأديان تحتكر فهم العقيدة لطبقة خاصة من رجال الدين دون عامة المؤمنين بتلك الديانة من الشعوب ، وللطبقة الكهنوتية فقط الحق في فهم الكتب الدينية ، وفرضها على سائر المعتقدين بتلك الكتب الدينية المقدسة عندهم . بل لا يسمحون للعامة المناقشة في فهم تلك النصوص ، وأنه ليس عليهم سوى تنفيذ الإرادة العليا تقليد الأعمى .

فالمجتمع في كل من الوثنية واليهودية والنصرانية تنقسم إلى قسمين : رجال دين وغيرهم ، وعلى النقيض الإسلام ، فإنه لا توجد طبقة بعنوان رجل دين ، لأن كل مسلم هو رجل دين ، وكل امرأة هي امرأة دين ، وعلى كل منهم نفس المسؤوليات التي على غيرهم ، وإنما الفرق هو وجود طبقة متعلمة تعرف بالعلماء والعالمات والشيوخ والشيخات ، وبأن التعلم للثقافة الإسلامية مفتوح لكل انسان ، بل فرضه الرسول القائد (ص) بقوله : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " . (وراجع المادة في المعجم)

وعلى هذه كانت سيرة الأنبياء كلهم ، ومنهم أبو الأنبياء ابراهيم (ع) ، قال تعالى : (قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) فإن أبو الأنبياء ابراهيم (ع) كان حنيفياً ، (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) والإيمان بالجانب المادي فقط هو

نوع من الشرك ، وكذلك الإيمان بالجانب الروحي فقط .

فالعقيدة الإسلامية معلنة بكل صراحة لكل الناس من دون أي التواء وتعتيم .

ثانياً : وحدة الرسالات :

قال تعالى : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(136) .

وحدة الرسالات :

إنَّ العقيدة الإسلامية هي الرسالة الإلهية التي حملها جميع الأنبياء (ع) من قبل من دون أي تفريق بينهم فإنهم جميعا دعوا إلى تطبيق العدل الإلهي في المجتمع ولم يخلقوا طبقة كهنوتية خاصة لمعرفة تلك الرسالة وقد أشار سبحانه إلى هذه الوحدة الرسالية في كل الأديان السماوية بقوله :

(قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ) فإنه هو المرسل للأنبياء لهداية البشرية .

(وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا) وهو الإسلام الذي هو خاتمة الأديان الإلهية . (وَمَا أُنزِلَ إِلَى) الأنبياء قبل النبي محمد (ص) بأداء دورهم في الحياة لتوازن في الجانب الروحي والحياة الإجتماعية ، وخصّ بالذكر منهم :

1- (إِبْرَاهِيمَ) باعتباره أبو الأنبياء في الشرق بعد الطوفان .

2- (وَإِسْمَاعِيلَ) الإبن الأكبر لإبراهيم من زوجته هاجر .

3- (وَإِسْحَقَ) الإبن الأصغر لإبراهيم من زوجته سارة .

4- (وَيَعْقُوبَ) ابن ابن إبراهيم .

5- (وَالأَسْبَاطِ) الإثنى عشر (راجع شجرة الأنبياء ، سورة الأنعام : آية 86) .

6- (وَمَا أُوتِيَ مُوسَى) وهو ابن عمران بن يعقوب .

7- (وَعِيسَى) الذي خلقه الله من دون أب ابن مريم بنت عمران المتصل نسبه إلى النبي موسى (راجع شجرة الأنبياء : سورة الأنعام : 86) .

واكتفي بالإشارة إلى هؤلاء السبعة المعروفة أدوارهم في الحياة لكل من اليهود والنصارى المعارضين للعقيدة الإسلامية ومن أجل ذلك لم نذكر الأنبياء العرب مثل هود وصالح وشعيب الذين لم تذكر أسمائهم في التوراة والإنجيل فإنهم يشاركون جميع الأنبياء الذين دعوا إلى رسالة السماء لبسط العدل في المجتمع .

وختم ذلك بقوله سبحانه : (وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ) فقد أرسل سبحانه الأنبياء لكل أمة بلسان قومه لتبليغ رسالة الله (ولكل أمة رسول) .

فالعقيدة الإسلامية تحترم كل هؤلاء بلا استثناء كما قال تعالى(لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ) لأنهم جميعا قاموا برسالة واحدة هي رسالة الله الداعية إلى التوحيد والعدل في المجتمع .

(وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) لأن الله سبحانه هو الذي أمرهم بتحمل هذه المسؤولية والإيمان به تعالى يستلزم الإيمان بهم .

ثالثاً : الرؤية الواضحة

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

العقيدة الإسلامية مفهومة في مبادئها ولوازمها التطبيق في الحياة وليست نظريات معقدة غير مفهومة كما هو الحال في التثليث أو الفكر المادي الذي يتعامى عن دلالة الآيات الكونية على قدرة الله في الدنيا والآخرة على حد سواء وهذه الرؤية الواضحة المفهومة لكل إنسان بالفطرة هي الهداية سواء قبلها الآخرون كما تقتضيه الفطرة السليمة أو رفضها عنادا وشقاقا. وأكد سبحانه بأن من يرفض هذه الرؤية الواضحة سوف يعادي المؤمنين بها حين نجده حجر عثرة في سبيل إغواء الآخرين فأن دعوته الصريحة تفضح خطط الأعداء القائمة على أساس تجميد العقول لعلمها بأن العقل إذا تحرر لا يتبقى لهم مجال لاستعمار الشعوب وفي نفس الوقت وعد سبحانه بأن الله سيكون لهم بالمرصاد بقوله تعالى : (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ) ؛ لأن الحقائق سوف تظهر على مدى الزمن ولا تنطلي الدعايات الباطلة إلا على السذج لفترة قصيرة من الزمن ولذلك نجد الأمم المغلوب على أمرها تثور بعد

أن تنكشف الحقائق والوعود الكاذبة لها : (وَهُوَ السَّمِيعُ) لدعايات المنحرفين التي لا يكون دورها إلا محدوداً زمنياً .

(العَلِيمُ) بأن الحق سوف يعود إلى نهاية ما دامت الرؤية الواضحة ثابتة مهما طال الزمن .

رابعاً : شعار التوحيد

قال تعالى : (صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) .

لكل أمة شعار يميزها عن غيرها من الأمم وقد اشتهرت اليهودية بالمادة والماديات والنصرانية بالتقشف والروحانيات وكانت تستخدم الدهن عند العبادة في حياتهم ويعرفون بهذه الصبغة و لا تزال تستعمل في الكنيسة الشرقية شعارا لها كما يستخدمون أيضا أنواع البخورات كشعار للعبادة تميزهم عن غيرهم مع أنها في ذاتها عطور كانت تستخدم لتلطيف الجو وقد أصبحت وسيلة مادية للتجارة باسم الدين .

والإسلام اتخذ شعار التوحيد الخالص لله سبحانه من دون استخدام هذه الوسائل المادية التي ينتفع منها المتاجرون بها سواء باسم الدين أم غيره .

قال سبحانه : (صِبْغَةَ اللَّهِ) ؛ فإن الألوان المادية من الدهن والعطور والبخور كلها وسائل مادية والتوحيد الخالص لا يفتقر إلى لون مادي .

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) لأن تعالى هو الواهب للمادة والماديات ألوانها فهو الحقيق بالعبادة دون سواه .

(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) وحده لا سواه من مظاهر المادة والماديات التي لا ينتفع منها أصحاب المادة وهواة الماديات سواءً كان تحت شعار الدين أم غيره .

خامساً : الإخلاص في العمل

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) .

المخلص بعمل ويكون عمله دليلاً على إخلاصه ، وغير المخلص يقول ولا يعمل وإهماله دليل على عدم إخلاصه

والعقيدة الإسلامية تمتاز بهذا الإخلاص في العمل في كل الحالات سراً وعلانية قربة إلى الله تعالى وحده من دون مقايضة على منصب أو جاه غير الإسلام ، ويؤكد على بطلان المحاجة بالكلام المجرد عن العمل وضوح الحقائق وليس هناك عمل من غير المسلم قربة إلى الله بل لما ينتفع به صاحب الدعوة ماديا في الحياة وإن كانت خافية على العامة وقد استند سبحانه هذا البرهان العملي بقوله : (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ

) يشير بالدعوة إلى عبادة المادة والماديات فقط أو التركيز على الروحانيات فقط .

(وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) الواو حالية فإن الربوبية لا تنكره اليهود ولا النصارى وهم جميعا يؤمنون بالله كما يؤمن المسلمون فليس هناك حاجة إلى الاحتجاج بل المهم هو ما يثبت هذا الإيمان وهو العمل .

(وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) فإن العمل هو الذي يظهر الحقائق فإن العمل القائم على عبادة المادة والماديات فقط يعارض الإيمان بالله عمليا كذلك العمل على الروحانيات فقط ولا يكون مقياس للإيمان بالله سوى المقرون بالعمل مخلصا لله تعالى وليس للمنافع الشخصية .

سادساً : رفض الانحراف

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

والإنحراف مرض الأديان والمبادىء فأنها حين وجود الأنبياء أو المؤسسين أنما هي أفكار سامية تطبق نصاً وروحاً ، ولكن سرعان ما يطرأ مرض الانحراف عليها في الأجيال المتعاقبة التي تتمسك بالعادات والتقاليد من دون رعاية لروح تلك الأديان والمبادىء ، وقد حصل ذلك في التأريخ كله ، وليس تأريخ الإسلام مستثنى من ذلك ، وإنما الفرق أن في الإسلام دائماً

وعد إلهي بالنظر لمن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، وهذا مفقود في الأديان الأخرى .

ثم أشار سبحانه إلى الانحراف في اليهودية والنصرانية عن رسالات الأنبياء الذين يؤمنون بهم بالاستفهام الإنكاري ، (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ).

وليس لعاقلٍ أن يدعي ذلك لأن هؤلاء الأنبياء كانوا قبل ظهور ما يعرف باليهودية والنصرانية فلا يمكن وصف هؤلاء الأنبياء المتقدمين تاريخيا بأنهم يهود أو بأنهم نصارى وهذه الحقيقة تكشف أن المتأخرين عنهم انحرفوا عن رسالات المتقدمين من الأنبياء بهذه التسميات المستحدثة .

ثم أشار سبحانه إلى نوعية التسميات المتأخرة بأي سبب كان يكون انحرافاً ولا يوجب قبولها وذلك بالتأكيد على أمرين : الأول : أن التسميات المستحدثة لو كانت حقاً لأمر الله بها ، وحيث لم يأمر بها فتكون انحرافاً ممن يستخدمها فقال سبحانه مستنكراً : (قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ) فإن استخدام التسمية المستحدثة يلزم أن المستخدم لها اعلم من الله نعوذ بالله .

الثاني: إن ذلك كتمان للحقائق الثابتة من وجوه الرسالة الإلهية

التي جاءت على لسان الأنبياء من التوازن بين الحياة الروحية والمادية لإقامة العدل الاجتماعي .

قال سبحانه : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ) فإن أصحاب الديانات لهم علم بهذه الحقائق أن درسوها ـ كما هو المفروض فيهم ـ وأن لم يدرسوها فالمصيبة أعظم ومع العلم يكون التعتيم على هذه الحقائق ظلماً وكاتمها أظلم من الجاهل القاصر .

سابعاً : المسؤولية الذاتية

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

والحقيقة الأخيرة من الأعمدة السبعة للعقيدة الإسلامية هي المسؤولية الذاتية لكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية وليس بالتمشدق بالتاريخ الماضي من دون تطبيق بالسير على آثار الهداية الإسلامية التي طبقها الرسول القائد (ص) في حياته كما هو مدروس في السنة النبوية المطهرة (راجع موارد الاعتبار : قسم السيرة النبوية) وقد تكررت هذه الآية الكريمة نصاً برقم 134 فراجع فإن المسؤولية على كل إنسان في عصره بأن يقوم بما هو الواجب عليه حسب القدرة والاستطاعة وليس بإلغاء المسؤولية على غيره ، على النقيض تماماً من سائر الأديان لمن يدرسها بروح موضوعية .

بقي هنا الإشارة إلى حقيقة مرة بأن هذه الأعمدة السبعة للعقيدة الإسلامية الرصينة تعرضت في التأريخ الإسلامي إلى تغافل من ضعاف النفوس وحاول البعض ـ عن علم أو جهل أو تجاهل ـ إلى السير وراء

المادة والماديات في الحياة ولكن سرعان ما تنكشف الحقائق وتستخلص العبر لمن وقف على سيرة النبي القائد (ص) فيجب أن تقوم دعوة التصحيح على الرجوع إلى سيرته العطرة في الحياة ، كما قال سبحانه: (ولكم في رسول الله أسوة حسنة)[17].

The Open School
P.O. BOX 53573
CHICAGO, IL 60653-0398

---

[17] ـ سورة الأحزاب : 21 .

الفهرس العام

الإهداء 2
المقدمة 3
سورة الفاتحة 4
سورة البقرة 9
القسم الأول : وفيه عشرون مقطعاً 10
10
1ـ الأمثال القرآنية 25
25
2ـ أنواع الميثاق 57
57
3ـ بنو اسرائيل والرسل 61
61
4ـ الجنة 74
5ـ خصائص القرآن الكريم 10
10
6ـ الخليفة في الأرض 29
29
7ـ الدعايات الباطلة 70
70
8ـ دعوة ابراهيم 79
79

9ـــــ صــــــفات المـــــؤمنين 13

10ـــــــ العـــــــــداء لله 66

11ـــــــ العهـــــــد الإلهـــــــي 36

12ـــــــ مقيـــــاس الإيمــــــان 67

13- من حجج الكفار 21

14- من صفات الكفار 14

15ـــ مـــن صـــفات المنـــافقين 16

16- الميثاق 50

17ـــ نبـــوة محمـــد (ص) 64

18ـــــ نتيجـــــة الإيمــــان 24

19ـــ نعـــم بنـــي اســـرائيل 39

20ـــ اليهـــود والنصـــارى 83

خلاصـة القسـم الأول : الإسلام هو العقيدة الإبراهيمية 87

The Open School
P.O. BOX 53573
CHICAGO, IL 60653-0398